حقيقة الانتصار

تقديم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] [سورة آل عمران: الآية: ١٠٢].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[2] [سورة النساء، الآية: ١].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)[3] [سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة، في النار.

وبعد:

فقد تأملت في واقع الدعوة اليوم، وما مرت به في خلال هذا العصر من محن وابتلاءات، ورأيت أن الأمة تعيش يقظة مباركة، وصحوة ناهضة، والدعاة يجوبون الآفاق، والجماعات الإسلامية انتشرت في البلدان، حتى وصلت إلى أوربا وأمريكا، وقامت حركات جهادية في بعض بلاد المسلمين كأفغانستان وفلسطين وأرتيريا والفلبين وغيرها.

---

١ – سورة آل عمران آية: ١٠٢.

٢ – سورة النساء آية: ١.

٣ – سورة الأحزاب آية: ٧٠-٧١.

ولكن لحظت أن هناك مفاهيم غائبة عن فهم كثير من المسلمين، مع أن القرآن الكريم قد بيَّنها وفصَّلها تفصيلاً، ورأيت أن كثيراً من أسباب الخلل في واقع الدعوة والدعاة، يعود لغياب هذه الحقائق.

ومن هذه المفاهيم مفهوم "حقيقة الانتصار"، حيث إن خفاءه أوقع كثيراً من الناس في أنواع من الخلل، كالاستعجال، والتنازل، واليأس والقنوط ثم العزلة، وهذه أمور لها آثارها السلبية على الفرد الواقع فيها، وعلى الأمة.

من أجل ذلك كله عزمت على بيان هذه الحقيقة التي اضطربت في أذهان كثير من المسلمين، ودراستها في ضوء القرآن الكريم.

وأسأل الله التوفيق والسداد والإعانة.

أهمية الموضوع

تظهر أهمية الموضوع من خلال النظر في الآثار السيئة للفهم الخاطئ لحقيقة الانتصار، والخلط فيه بين حقيقة انتصار الداعية، وحقيقة انتصار الدعوة، وظهور الدين، فقد نشأت عن هذا الخلط أمور سلبية **أهمها**:

١- تصور كثير من الناس أن هذا الداعية لم ينتصر ولم ينجح في دعوته؛ لأنه لم يتمكن من تحقيق الأهداف التي يدعو إليها، ويسعى لتحقيقها، الأمر الذي يؤدي إلى التشكيك في منهجه، وانصراف بعض المدعوين عنه.

٢- استعجال النتائج وتحقيق الأهداف.

وذلك مِن قِبَل كثير من الدعاة، فإن بعض الدعاة إذا بدأ في دعوته فإنه يرسم منهجًا جيدًا يسير عليه لتحقيق أهدافه، ولكن إذا مضى زمن ولم يتحقق شيء من ذلك، أو تحقق شيء يرى أنه لا يساوي الجهود المبذولة، فإنه يتراجع.. يقوم بتعديل منهجه السليم إلى منهج خاطئ يستعجل فيه الثمار، وذلك ناتج عن تصوره الخاطئ لحقيقة ما يجب عليه، كأنه إذا لم تتحقق أهدافه فإنه لم يقم بما أوجبه الله عليه، غافلا عن الفرق بين الأمرين، أو جاهلاً لذلك.

٣- الانحراف عن المنهج.

وذلك أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فالداعية ملزم بأن يلتزم بمنهج أهل السنة والجماعة، وهو ما كان عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم وصحابته.

بل هو ما ورد في الحديث الصحيح: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ"[١].

١ - مسند أحمد (٢٨/ ٣٧٣) ١٧١٤٤ وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، سنن أبي داود (٤/ ٢٠١) ٤٦٠٧، سنن ابن ماجه (١/ ١٥) ٤٢، وصححه الألباني، سنن الترمذي (٥/ ٤٥) ٢٦٧٦، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وهو ما نفهمه من قوله –تعالى–: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[1] [سورة الأنعام الآية: ١٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تبين وجوب الالتزام بمنهج الكتاب والسنَّة.

وبعض الجماعات والدعاة، حرصًا منهم على نصر الإسلام، وتصورا منهم أن ظهور الدين وزوال الكفر والفساد مقياسا لنجاح دعوتهم، وأمام ضغط الظالمين ومساوماتهم، واستعجال الأتباع وعدم صبرهم، يسعى هؤلاء للحصول على بعض المكاسب، ونيتهم صالحة: نصرة لهذا الدين ودفاعا عنه، ولكن هذا الأمر قد يقتضي التنازل عن بعض الأصول، وهنا يأتي الداعية إلى محاولة تطبيق قاعدة المصالح والمفاسد، فينحرف عن المنهج الحق، والصراط المستقيم، دون أن يضطر إلى ذلك وإنما هو الهوى المقرون بالتأويل، فيستسلم جراءه لمساومات الأعداء وألاعيبهم.

٤– اليأس والقنوط ثم الاعتزال.

طريق الدعوة طريق طويل وشاق، مليء بالعقبات والمحن والابتلاءات، وقليل من الدعاة من يجتاز هذا الطريق وهو ثابت على دعوته، ملتزم بمنهجه.

وكثير من الدعاة عندما يسير في الطريق ثم يجد الأعوامَ تمضي ولم يحقق كبير شيء مما يدعو إليه، ويحاول إعادة الكرة مرة بعد الأخرى، ولا يرى أثرا مباشرا لدعوته، تبدأ عنده الشكوك والأوهام، فمرة: يتهم نفسه، وأخرى قومه، وثالثة: أتباعه ومؤيديه، ثم يصل في النهاية إلى أن هؤلاء القوم لا تنفع معهم دعوة، ولن يستجيبوا لداعية أو نذير، ويقول لنفسه: كفاني ما أتاني، وعليك بخاصة نفسك والسلام، (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)[2] [سورة البقرة، الآية: ٢٧٢]، (لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)[3] [سورة المائدة، الآية: ١٠٥] يضعها في غير موضعها، ويفهمها على غير وجهها.

فييأس من قومه، ويقنط من هداية الله لهم، ثم يعتزل الدعوة ويترك القوم وشأنهم.

---

١ – سورة الأنعام آية: ١٥٣.

٢ – سورة البقرة آية: ٢٧٢.

٣ – سورة المائدة آية: ١٠٥.

ومنشأ هذه النتيجة متعلق بضعف الإدراك لحقيقة الانتصار، وأن واجبه هو الصبر على قومه، ودعواتهم، وأنه إن استمر في ذلك مع عدم استجابتهم فلن يخلو من أجر، بل قد يكون ما يلقاه في ذات الله أعظم له أجرا، وذخرا، وعاقبة، مما لو اتبع واستجيب له.

وعوداً على المقصود فإن هذه الآثار ناتجة في أغلب أحوالها جراء الجهل بحقيقة الانتصار، وخلط كثير من الدعاة بين انتصار الدين، وانتصار الداعية.

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن نتحدث عنه، وأن يعمد الدعاة وطلاب العلم إلى تجليته وبيانه، وبخاصة أنه موضوع قرآني، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر مفهوم الانتصار، ومهمة الداعية، والفرق بين المهمة وبين النتيجة والأثر.

وفي الصفحات التالية تقرير لهذه الحقيقة وتجلية لها، ومن الله نستمد العون والتأييد.

مفهوم النصر وحقيقته

قال الله –سبحانه وتعالى–: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[1] [سورة غافر، الآية: ٥١].

وقال –سبحانه–: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[2] [سورة الروم، الآية: ٤٧]. وقال: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)[3] [سورة محمد، الآية: ٧]. وقال –جل ذكره–: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)[4] [سورة الحج، الآية: ٤٠]. وقال: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[5] [سورة الصافات، الآيات: ١٧١ – ١٧٣].

هذه الآيات وأمثالها تدل على انتصار الداعية، سواء أكان رسولا أو من آحاد المؤمنين، وهذا الانتصار يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

وفي المقابل علمنا من القرآن والسنة، أن من الأنبياء من قتله أعداؤه ومثّلوا به، كيحيى وأشعياء وأمثالهما، ومنهم من هم بقتله قومه، فأنجاه الله بفضله كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء، إذ أراد قومه قتله، ونجد من المؤمنين من يسام سوء العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، وهنا قد يتساءل المسلم: أين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ وقد طُردوا أو قتلوا أو عذبوا؟

نحن نعلم يقينا، أن وعد الله لا يتخلف أبداً، ومنشأ السؤال والإشكال أننا قصرنا النظر على نوع واحد من أنواعه، وهو النصر الظاهر المتعلق بالشخص، لا بدينه منفكاً عنه، ولا يلزم أن يكون هذا هو النصر الذي

---

١ – سورة غافر آية: ٥١.

٢ – سورة الروم آية: ٤٧.

٣ – سورة محمد آية: ٧.

٤ – سورة الحج آية: ٤٠.

٥ – سورة الصافات آية: ١٧١–١٧٣.

وعد الله به أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين،بل موعود الله لرسله نصر من حيث أنهم رسله، مبعثون لتبليغ شرعه، وإقامة دينه، فتلك هي وظيفتهم، وذلك حاصل قصدهم.

والله قد وعدهم بالنصر في ذلك، وهو متحقق لا شك في ذلك، ولا مرية، وذلك في الحياة الدنيا قبل الآخرة، لأن الله –سبحانه– قال: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[1] [غافر الآية: ٥١]. ومن أصدق من الله قيلاً.

ولتجلية هذه القضية، لا بد من إيضاح معنى النصر، وبيان أنه أشمل مما يتبادر إلى أذهاننا، ويسبق إلى أفهامنا، إذ للنصر وجوه عدة، وصور متنوعة أهمها ما يأتي:

١– النصر قد يكون بالغلبة والقهر للأعداء على أيدي الأنبياء والرسل، كما حصل لداود وسليمان، عليهما السلام، (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ)[2] [سورة البقرة، الآية: ٢٥١]. (وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً) [3] [سورة الأنبياء، الآية: ٧٩]، (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [النمل]، (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) [الأنبياء]، (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)[4] [سورة ص، الآية: ٣٥].

وكذلك موسى، عليه السلام، نصره الله على فرعون وقومه، وأظهر الدين في حياته، (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[5] [سورة الأعراف، ١٣٧]. (فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)[6] [البقرة، الآية: ٥٠]،

---

١ – سورة غافر آية: ٥١.

٢ – سورة البقرة آية: ٢٥١.

٣ – سورة الأنبياء آية: ٧٩.

٤ – سورة ص آية: ٣٥.

٥ – سورة الأعراف آية: ١٣٧.

٦ – سورة البقرة آية: ٥٠.

ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم نصره الله نصرا مؤزرا، وأهلك أعداءه في بدر، وما بعدها حتى ظهر دين الله، وقامت دولة الإسلام، وجاء نصر الله والفتح، (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)[1] [سورة الفتح، الآية: ١]. (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً)[2] [سورة النصر، الآيتان: ١- ٢].

وهذا النوع من الانتصار هو النصر الظاهر، وهو أول ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق كلمة النصر، لأسباب منها:

أ- أنه نصر ظاهر يراه الناس ويحسون به.

ب- أنه هو الانتصار الذي يجمع بين انتصار الدين وظهوره وانتصار الداعية.

ج - أنه محبب إلى النفوس، وهو النصر العاجل، والنفس مولعة بحب العاجل، ولذلك قال -سبحانه-: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)[3] [سورة، الصف: ١٣].

٢- النصر قد يكون بإهلاك المكذبين، ونجاة الأنبياء والمرسلين، ومن آمن معهم، كما حدث لنوح، عليه السلام، حيث نجاه الله وأهلك قومه، كما قال الله تعالى: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ)[4] [سورة القمر، الآيات: ١٠-١٤].

وكذلك هود وقومه، قال الله تعالى: (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)[5] [سورة الأعراف، الآية: ٧٢].

وقال في قوم صالح: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)[6] [سورة الأعراف، الآية: ٧٨].

---

١ - سورة الفتح آية: ١.

٢ - سورة النصر آية: ١-٢.

٣ - سورة الصف آية: ١٣.

٤ - سورة القمر آية: ١٠-١١-١٢-١٣-١٤.

٥ - سورة الأعراف آية: ٧٢.

٦ - سورة الأعراف آية: ٧٨.

وفي قوم لوط: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)[1] [سورة الأعراف، الآية: ٨٤].

وفي قوم شعيب، (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[2] [سورة الشعراء، الآية: ١٨٩]، وهذه سنة الله في كثير من المكذبين، أمهلهم الله ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر: (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[3] [سورة العنكبوت، الآية: ٤٠]. وأخذ المجرمين بالعذاب الأليم نصر عظيم للداعية، وكبت للمكذبين والمرجفين.

٣- قد يكون الانتصار بانتقام الله من أعدائهم، ومكذبيهم، بعد وفاة هؤلاء الأنبياء والرسل[4]، كما حدث مع من قتل يحيى، -عليه السلام- وأشعياء، ومن حاول قتل عيسى، عليه السلام، قال الإمام الطبري في تفسير الآية: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[5] [سورة غافر، الآية: ٥١] "إما بإعلائنا لهم على من كذبنا.. أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قتلته من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم، حتى أهلكناهم بهم"[6]، وهذا يدخل تحت قوله -تعالى-: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ)[7] [سورة محمد، الآية: ٤]. أي: لانتقم.

---

١ - سورة الأعراف آية: ٨٤.

٢ - سورة الشعراء آية: ١٨٩.

٣ - سورة العنكبوت آية: ٤٠.

٤ - ومن أهل العلم من فرق بين النبي والرسول في ذلك، فجعل الظهور أمراً مختصاً بالرسول دون النبي، قال: "الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ، قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا) [غافر: ٥١]"، ولا يظهر هذا الفرق على التحقيق، فالكل مرسل على الصحيح مأمور بالتبليغ، ومن أنبياء بني إسرائيل من آتاه الله ملكاً عظيماً، وكما قال الله تعالى: (إنا لننصر رسلنا)، قال: (كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) [المائدة: ٧٠]، مع أن الله تعالى قال في آية غافر: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) فعطف عليهم المؤمنين فدل على أن الحكم غير مختص بالرسل لو قدر الحمل لفظ الرسول هنا على غير النبي، والأنبياء من أكمل الناس إيماناً وأولاهم بقوله: (والذين آمنوا)، والله أعلم.

٥ - سورة غافر آية: ٥١.

٦ - تفسير الطبري ٢٤/٧٤.

٧ - سورة محمد آية: ٤.

٤- ما يتصوره الناس هزيمة قد يكون هو النصر الحقيقي، كالقتل، والسجن والطرد والأذى، وذلك إذا كان في ذات الله، لمن التزم أمر الله تعالى.

فقد يكون قتل الداعية شهادة في سبيل الله، (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[١] [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]، ومن هذا القبيل داعية أصحاب القرية التي جاءها المرسلون، فجاء من أقصى المدينة ناصراً لهم، (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)[٢] [سورة يس، الآيتان: ٢٦، ٢٧].

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)[٣] [سورة التوبة، الآية: ٥٢]. فقتل الداعية القائل كلمة الحق المشروعة، المندوب إليها، انتصار من جهة كونه:

(أ) **شهادة**، وهي من أعظم أنواع الانتصار، (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)[٤] [سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠].

(ب) **انتصار للمنهج وظهور له**، كما حدث لعبد الله الغلام عندما قتله الملك، فقال قوم: "آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ"[٥].

ونجد في العصر الحاضر من الدعاة من كان قتله انتصاراً لمنهجه الذي عاش من أجله، ومات في سبيله، حتى قال أحد الشيوعيين وهو في سجنه عن أحدهم: إنني أتمنى أن أقتل كما قتل وتنتشر مبادئي، وكتبي كما انتشرت كتبه. ولا غرو فقد وجدنا مطابع النصارى في لبنان تسارع إلى طباعة ونشر كتب بعض دعاة الإسلام الذين قضوا نحبهم محاربين مضيقاً عليهم، لما تدره من أرباح هائلة، نظرا لكثرة القراء والمستفيدين.

وقد قال بعض الدعاة: "إن كلماتنا وأقوالنا تظل جثثا هامدة حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء عاشت وانتفضت بين الأحياء"، وصدق لكن بقيد: أن تكون صالحة لله! فقد قال علماؤنا من قبله: "ما كان

---

١ - سورة آل عمران آية: ١٦٩.

٢ - سورة يس آية: ٢٦-٢٧.

٣ - سورة التوبة آية: ٥٢.

٤ - سورة آل عمران آية: ١٦٩-١٧٠.

٥ - صحيح مسلم (٤/٢٣٠٠) ٣٠٠٥، وهو قطعة من قصة أصحاب الأخدود.

لله فهو يبقى"[1]، فإن تحقق هذا القيد فلن تنتفض بين الأحياء فحسب! بل سوف تبقى بعدهم خالدة إلى يوم الدين، ويومئذ يفرح بلقائها أصحابها.

(ج) **ذكر طيب بعد وفاته،** قال إبراهيم، عليه السلام، (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)[2] [سورة الشعراء، الآية: ٨٤]. والمقتول في سبيل الله له ذكر طيب عند المؤمنين، وهذا أمر مشاهد، وحسبه إن جهله الناس أن يذكر في الملأ الأعلى.

وكذلك الطرد والإخراج، قد يكون انتصارا للداعية، وسبباً لظهور دعوته في بلاد طيبة تقبله، وقد قال الله تعالى عن رسوله، صلى الله عليه وسلم حين أخرجته قريش من مكة: (إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)[3] [سورة التوبة، الآية: ٤٠]، فجعل خروجه نصراً له، ولا شك أن خروجه من مكة كان انتصارا من عدة أوجه، أهمها:

(١) أن الله نجاه من المشركين، وحماه منهم، وأعماهم عنه، حيث أرادوا قتله.

(ب) أن الدعوة انتقلت إلى بيئة أخرى تحميها وتؤازرها بعد أن كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم محارباً مطارداً، وأصحابه يعذبون ويقتلون، ولا يتمكنون من إظهار عبادتهم لله بخلاف حالهم في المدينة.

(ج) قيام دولة الإسلام في المدينة، وانطلاقة الجهاد بعد ذلك، ثم دخول الناس في دين الله أفواجا.

وكذلك نجد أن هجرة الصحابة للحبشة كانت انتصاراً لهم، وكبتا لأعدائهم، ولذلك لاحقتهم قريش إلى هنالك، ولكنهم عادوا خائبين حيث حماهم النجاشي، بل أسلم ودخل في دين الله.

وقل مثل ذلك عن السجن والتعذيب والأذى، فإن انطلاقة الداعية قد تكون بداية من سجنه أو إيذائه، وفي خبر نبي الله يوسف عليه السلام عبرة.

---

١ – انظر جامع المسائل لابن تيمية ٢٦٥/٥، والكلمة مأثورة عن الإمام مالك.

٢ – سورة الشعراء آية: ٨٤.

٣ – سورة التوبة آية: ٤٠.

وكذلك في واقعنا المعاصر! أعرف داعية اتهم في عرضه من قبل أعدائه، وسجن، وعظمت الفرية حتى تصور كثير من الناس أن هذا الداعية قد انتهى، ولن يكون له شأن بعد اليوم، ولكن كانت هذه التهمة انطلاقة كبرى لهذا الداعية، من عدة أوجه:

(١) انتصر على نفسه حيث عرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته، فغدت لديه مناعة من الخوف أو الرهبة من غير الله.

(ب) تكشف له الباطل، وعرف زيف بعض من كان يتلبس بالحق تمويها وخداعا.

(جـ) عرف صديقه من عدوه، وكما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد عني كل خير عرفت بها صديقي من عدوي

(د) زاد عدد طلابه ومحبيه، وكثر المستمعون للحق الذي يدعو إليه، فأصبحوا عشرات الآلاف بل يزيدون.

(هـ) كبت الله أعداءه وخصومه، وتجرعوا كأس الهزيمة وهم ينظرون.

أليس هذا هو الانتصار في الحياة الدنيا قبل الآخرة؟ بلى والله! (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)[١] [سورة المنافقون، الآية: ٨]. وقبل أن نغادر هذا النوع من أنواع الانتصار، لا بد من الوقوف أمام حقيقة تخفى على كثيرين، وهي نوع من أنواع انتصار الداعية، ذلك أن خصم الداعية قبل أن يقتله أو يسجنه أو يؤذيه أو يطرده غالباً ما يكون قد ذاق ألوان الأذى المعنوي والعذاب النفسي قبل أن يقدم على ما أقدم عليه، بل وأحيانا بعد أن يفعل فعلته، فإنه لا يجد للراحة مكاناً، ولا للسعادة طعماً، بل يبقى مضطرباً ضيق الصدر مكتئباً، وقد ذكروا أن الحجاج بن يوسف بعد أن قتل سعيد بن جبير رحمه الله، ذاق ألوان العذاب النفسي حتى جفاه النوم، إذا أغمض جفنه قام من فراشه فزعاً وهو يقول: "مَالِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ"[٢]، حتى مات في همه وغمه.

١ – سورة المنافقون آية: ٨.

٢ – مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٢٠٠) ٣٠٦٥٧.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة، كما في سورة آل عمران، قال الله تعالى: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)[1] [سورة آل عمران، الآيتان: ١١٩، ١٢٠].

وقال -سبحانه-: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً)[2] [سورة الأحزاب، الآية: ٢٥].

وصدق من قال:

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

بينما نجد الداعية وإن ضيّق عليه يعيش في سعادة، قال الإمام الطبري في قوله -تعالى-: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[3] [سورة الصافات، الآيات: ١٧١ - ١٧٣] قال: كان بعض أهل العربية يتأول ذلك، ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالسعادة[4] وهذا -أيضا- معنى حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ "[5].

وقد قال الإمام ابن القيم مخبراً عن حال شيخه شيخ الإسلام في السجن، قال كان يقول: "ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وسجني خلوة. وكان يقول في محبسه في القلعة لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة! أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، أو نحو هذا، وكان

١ - سورة آل عمران آية: ١١٩-١٢٠.

٢ - سورة الأحزاب آية: ٢٥.

٣ - سورة الصافات آية: ١٧١-١٧٢-١٧٣.

٤ - تفسير الطبري ١١٤/٢٣.

٥ - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥) ٢٩٩٩.

يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه! ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) [الحديد: ١٣]"، ثم قال ابن القيم: "وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط! مع كل ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منّا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلاّ أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة! فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه! وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. وكان بعض العارفين يقول لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف"[١].

وهنا ندرك من المنتصر ومن المنهزم، وأن الانتصار والهزيمة أبعد معنى مما يراه الناس في الظاهر، بل هناك حقائق قد لا تدرك بعيون من ملأت الدنيا قلوبَهم!

٥- ثبات الداعية على مبدئه، وهذا انتصار باهر، وفوز ساحق، حيث يعلو على الشهوات والشبهات، ويجتاز العقبات بشجاعة وثبات، بل إنه لا يمكن أن يتحقق الانتصار الظاهر إلا بعد تحقق هذا الانتصار، فإبراهيم، عليه السلام، وهو يلقى في النار كان عالياً منتصراً، (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)[٢] [سورة الصافات، الآيتان: ٩٧، ٩٨].

والإمام أحمد -رحمه الله- عندما ثبت على مبدئه في محنة القول بخلق القرآن، ورفض الاستجابة لجميع الضغوط ومحاولات التراجع كان يمهد الطريق لإمامة أهل السنة.

وأصحاب الأخدود وهم يلقون في النار، ولا يقبلون المساومة على دينهم، ويفضلون الموت في سبيل الله كانوا هم الفائزين، وأي فوز! قال الله تعالى معقباً على خبرهم في سورة البروج: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

١ - الوابل الصيب لابن القيم ص٦٩.

٢ - سورة الصافات آية: ٩٧-٩٨.

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) [سورة البروج، الآية:١١]، وذلك الفوز الكبير لايفهمه من استحوذت الدنيا على قلبه وملأت بصره، وهو يتصور أمّاً قد احتضنت رضيعها ثم قذفت معه في النار! لكن يفهمه من عمر الإيمان قلبه، وأدرك أن بعد اليوم غداً، لن يضيع فيه ذلك هدراً.

ونجد هذا المعنى من معاني الانتصار في الحديث الذي رواه خباب عندما جاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم وقال له: "أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ" [(١)] الحديث.

فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الانتصار هو الثبات على الدين، وعدم التراجع مهما كانت العقبات والمعوقات.

٦ – النصر قد يكون بقوة الحجة، وصحة البرهان، قال الإمام الطبري في قوله تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)[(٢)] [سورة الصافات، الآيتان: ١٧١، ١٧٢]. يقول –تعالى ذكره– ولقد سبق منا القول لرسلنا أنهم لهم المنصورون، أي مضى بهذا منا القضاء والحكم في أم الكتاب، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة بالحجج.

قال السدي: (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)[(٣)] بالحجج[(٤)].

وقال الطبري في قوله –تعالى–: (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)[(٥)] أي فجعلنا قوم إبراهيم الأذلين حجة، وغلبنا إبراهيم عليهم بالحجة[(٦)].

---

١ – صحيح البخاري (٤/ ٢٠١) ٣٦١٢.

٢ – سورة الصافات آية: ١٧١–١٧٢.

٣ – سورة الصافات آية: ١٧٢.

٤ – تفسير الطبري ١١٤/٢٣.

٥ – سورة الصافات آية: ٩٨.

٦ – تفسير الطبري ٧٥/٢٣.

وكذلك نجد هذا المعنى في قوله – تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)[1] [سورة الأنعام، الآية: ٨٣]، والرفع انتصار.

وكذلك في سورة البقرة بعد أن ذكر الله محاجة الذي كفر لإبراهيم في ربه، قال الله –تعالى– (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)[2] [سورة البقرة، الآية: ٢٥٨]، والبهت ضرب من الهزيمة، فقد انهزم الكافر وانتصر إبراهيم بالحجة والبرهان.

إذن فانتصار الداعية بقوة حجته هو انتصار حقيقي، بل هو وسيلة من أهم وسائل انتصار الدين وظهوره.

٧– انتصار الداعية، غير محصور في زمان أو مكان، فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة، ومكانه أرض الله الواسعة.

ولذا فقد يضطهد الداعية في مكان وينتصر في مكان آخر، كما حدث لنبينا محمد، **صلى الله عليه وسلم** فقد اضطهد في مكة، ثم انتصر في المدينة أولا ثم في مكة ثانيا.

وموسى، عليه السلام، اضطهد في أرض فرعون وانتصر بعد ذلك في مكان آخر، وقد يضطهد الداعية في زمان، ثم ينتصر في زمان آخر. كما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية، فمات في سجنه –رحمه الله– ولكن انتصرت دعوته أعظم الانتصار بعد عدة قرون من وفاته ولا تزال.

وهذا أمر معلوم ومشاهد، فكم من داعية هزم في مكان وانتصر في مكان آخر، وأوذي في زمان وانتصر في زمان آخر، سواء في حياته أو بعد وفاته.

٨– أخيراً، فإن النصر قد يكون بالمنع، أي بحماية الداعية ومنع أعدائه من الوصول إليه، قال – سبحانه–: (وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)[3] [سورة البقرة، الآية: ٤٨]؛ أي يمنعون[4].

١ – سورة الأنعام آية: ٨٣.

٢ – سورة البقرة آية: ٢٥٨.

٣ – سورة البقرة آية: ٤٨.

٤ – انظر تفسير الطبري ٢٦٩/١ وهو قول لابن عباس.

وقال –جل وعلا–: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)[1] [سورة الحجر، الآية: ٩٤، ٩٥].

قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية: فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئاً سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك، كما كفاك المستهزئين[2].

وقال –سبحانه–: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[3] [سورة المائدة، الآية: ٦٧]؛ أي يمنعك ويحوطك بالحماية.

هذه بعض أوجه النصر، ولو تأملنا في هذه الأوجه ثم نظرنا إلى سيرة الأنبياء والرسل، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، لوجدنا أن كل واحد منهم قد تحقق له نوع من هذه الأنواع أو أكثر من نوع، كما حدث لنبينا محمد، صلى الله عليه وسلم فقد انتصر بظهور الدين وتمامه، وانتصر بإهلاك من كذبه في بدر وما بعدها، وانتصر، وهو يخرج من مكة، وانتصر بالحجة والبرهان، وانتصر بالمنع من الأعداء، وانتصر في غير بلده، وانتصر بالثبات على دين الله والصدع بكلمة الحق، (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)[4] [سورة الإسراء، الآية: ٧٤].

ويتفاوت الأنبياء والرسل، عليهم السلام، في الانتصارات التي حققوها، ولكن وعد الله قد تحقق لهم في الجملة، كما قال: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[5] [سورة الصافات، الآيات: ١٧١، ١٧٢، ١٧٣].

وكذلك كل مؤمن صادق فسيتحقق له الانتصار، سواء في حياته أو بعد مماته تحقيقا لوعد الله: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[6] [سورة غافر، الآية: ٥١].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا المفهوم الشامل للانتصار، وأنه لا يجوز لنا أن نحدد نوع الانتصار الذي وعده الله عز وجل فذلك له سبحانه، فالأمر لله من قبل ومن بعد، ولسنا سوى عبيد له، سبحانه، نسعى

١ – سورة الحجر آية: ٩٤–٩٥.

٢ – تفسير الطبري ٦٩/١٤.

٣ – سورة المائدة آية: ٦٧.

٤ – سورة الإسراء آية: ٧٤.

٥ – سورة الصافات آية: ١٧١–١٧٢–١٧٣.

٦ – سورة غافر آية: ٥١.

لتحقيق عبوديته، ومن كمال العبودية أن نعلم ونوقن يقيناً جازماً لا شك فيه أن وعد الله متحقق لا محالة، ولكننا قد لا ندرك ذلك لحكمة يعلمها الله، وقد يتأخر النصر ابتلاءً وامتحاناً، وصدق الله العظيم: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] [سورة الروم، الآية: ٤٧].

١ – سورة الروم آية: ٤٧.

ما مهمتنا ؟

من أجل أن نفقه حقيقة الانتصار لا بد من أن نعرف المهمة التي كلفنا الله بها فبمقدار القيام بهذه المهمة يتحقق الانتصار.

هل مهمتنا أن نقوم بهداية الناس؟ أو مهمتنا أن نسعى ونجد في دعوة الناس للهداية والإيمان؟

هل مهمتنا أن نجبر الناس على الإيمان؟ أو مهمتنا أن نبين لهم الطريق، وندعوهم إلى الإيمان؟ إن مهمة الأنبياء والرسل والدعاة تتلخص في كلمة واحدة، إنها: البلاغ.

بل إن مسئوليتهم محصورة في هذا الكلمة وحدها.

الأدلة على أن الواجب هو البلاغ:

والآيات التي جاءت مقررة لهذه الحقيقة كثيرة، ومع ذلك قد تغيب عن أذهان كثير من الدعاة والمصلحين.

قال الله عز وجل: (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) [الشورى: ٤٨]، وقال: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) [الرعد: ٤٠]، وقال سبحانه: (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[١] [سورة النحل، الآية: ٣٥]، وقال: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[٢] [سورة النور، الآية: ٥٤]، وفي سورة أخرى: (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[٣] [سورة التغابن، الآية: ١٢] وفي المائدة: (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[٤] [سورة المائدة، الآية: ٩٢].

قال الإمام الطبري في قوله -تعالى-: (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)[٥] [سورة آل عمران، الآية: ٢٠]. "وإن أدبروا معرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام، وإخلاص التوحيد لله رب العالمين، فإنما أنت رسول مبلغ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلفتك من طاعتي" [٦].

---

١ – سورة النحل آية: ٣٥.

٢ – سورة النور آية: ٥٤.

٣ – سورة التغابن آية: ١٢.

٤ – سورة المائدة آية: ٩٢.

٥ – سورة آل عمران آية: ٢٠.

٦ – تفسير الطبري ٣/٢١٥.

وقال ابن عاشور في تفسيرها: وإن تولوا وأعرضوا عن قولك لهم: آسلمتم، فليس عليك من إعراضهم تبعة، فإنما عليك البلاغ، فقوله: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ)[1] وقع موقع جواب الشرط، وهو في المعنى علة الجواب، فوقوعه موقع الجواب إيجاز بديع، أي لا تحزن، ولا تظنن أن عدم اهتدائهم، وخيبتك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك، إذ لم تبعث إلا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء المبلغ إليهم [2].

هداية التوفيق بيد الله وحده:

من المقرر أن الهداية نوعان:

الأول: هدية دلالة وإرشاد، وهي غير مختصة بأحد، فهي مهمة الرسل وأتباعهم، ملخصها البلاغ، وما يتبعه من أوصاف، كأن يكون مبيناً، واضحاً، بلسان المخاطبين ليفقهوه، ثم له آداب وأحكام ليس هذا موضعها.

الثاني: هداية توفيق وإلهام للقبول، وهذه بيد الله وحده لا شريك له، فالله تعالى مختص بهذه، وله أيضاً من هداية الإرشاد والدلالة أعلى المراتب.

وما جاء في القرآن أو السنة من إثبات الهداية لنبيه صلى الله عليه وسلم إنما هي في هداية الدلالة والإرشاد، التي هي البلاغ والبيان، كما في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [إبراهيم: ٥٢]، فهذه هداية إرشاد غير مختصة بالله، للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم منها أكمل الحظ والنصيب، وللدعاة الهداة منها حظ كل بحسبه، ومن ذلك ما قصه الله عز وجل في القرآن عن مؤمن آل فرعون، قال الله عز وجل: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر: ٣٨]، ومن هداية الإرشاد المضافة إلى الله عز وجل هداية كلامه، المنزل في كتبه، وأجل ذلك القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: ٩]، وقوله: (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) [الأحقاف: ٣٠]، فهذه هداية دلالة.

---

١ – سورة آل عمران آية: ٢٠.

٢ – التحرير والتنوير ٢٠٥/٣، ولو قال: أن عدم اهتدائهم مع عملك على تحصيل إسلامهم، كان أسلم مما عبّر به.

أما هداية التوفيق، فهي لله وحده، فالقلوب بين أصبعيه، يقلبها كيف يشاء، وليس لنبي فضلاً عمن دونه شيء منها، كما قال تعالى: (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) [النحل: ٣٧]، (فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) [الروم: ٢٩]، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [الجاثية: ٢٣].

وحقيقة كون مهمة الرسل هي البلاغ، لا هداية القلوب، جاءت مبينة في آيات كثيرة كلها تقرر أن هداية الناس ليست للأنبياء ولا للرسل ولا لغيرهم، بل هي بيد الله وحده، قال الله عز وجل: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [البقرة: ٢٧٢]، قال -سبحانه-: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[١] [سورة يونس، الآية: ٩٩]. وقال -جل وعلا -: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[٢] [سورة القصص، الآية: ٥٦].

فمهمة أتباع الرسل كذلك محصور في البلاغ، ومن شرطه أن يكون حقاً لا التواء فيه ولا إخفاء ولا تحريف بدعوى تحقيق مكاسب للدعوة! فلسنا مكلفين بذلك، بل الأمر على قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[٣] [سورة الكهف، الآية: ٢٩]، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [إبراهيم: ٤].

إذا تحقق واجب البلاغ فلا أسف على النتائج:

إذا قام الداعية بواجب البلاغ كما أمر الله، فلم يحرّف الدعوة، أو يخفي الحق، بدعوى تحقيق مكاسب! بل صدع بما أُمر، وبَلَّغ كما أُمر بالحكمة والموعظة الحسنة، فليس عليه أن يأسى بعد ذلك أو يأسف على من لم يستجب، قال الله عز وجل مبيّناً عاقبة قوم شعيب لما كذبوه: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [الأعراف: ٩١]، ثم عقب بكلمة شعيب عليه السلام: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) [الأعراف: ٩٣]، وقال في فرعون وقومه: (فَمَا

١ – سورة يونس آية: ٩٩.

٢ – سورة القصص آية: ٥٦.

٣ – سورة الكهف آية: ٢٩.

بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) [الدخان: ٢٩]، بل قال عز وجل: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) [هود: ٩٩]، وقال في عاد: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) [هود: ٦٠].

وقد قال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)[١] [سورة الكهف، الآية: ٦]. ومثلها: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[٢] [سورة الشعراء، الآية: ٣]، والمراد ما جاء مصرحاً به في الآية الأخرى: (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)[٣] [سورة فاطر، الآية: ٨]، وقال (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) [النحل:١٢٧]، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) [النمل].

بل قال عز من قائل سبحانه: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[٤] [سورة الأنعام، الآية: ٣٥].

والآية الأخرى في الذاريات، في معناها بأسلوب آخر: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[٥] [سورة الذاريات، الآيتان: ٥٤، ٥٥].

هذه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله مبينة مهمة الأنبياء والرسل والدعاة، صريحة في نفي ما قد يتصور بعض الدعاة أنه من مسئوليتهم، تبين منهاج الدعوة الشرعية، وأن واجبنا هو اتخاذ الخطوات والسبل المشروعة لتغيير الواقع السيئ، لا تغيير الواقع، وتحذر من منهاجين منحرفين؛ منهاج الإجبار والإكراه على

١ – سورة الكهف آية: ٦.

٢ – سورة الشعراء آية: ٣.

٣ – سورة فاطر آية: ٨.

٤ – سورة الأنعام آية: ٣٥.

٥ – سورة الذاريات آية: ٥٤–٥٥.

الدين وحمل الناس عليه بالعنف، ومنهاج التنازل عن بعض الدين، الذي يؤول في كثير من صوره إلى تحريف الدين لأجل أن يستقيم الناس ولكن على دين آخر!

وإذا تقرر أن وجابنا هو البلاغ المبين، فمتى قمنا به، وثبتنا عليه، فذلك هو الفوز العظيم، ولا أسى بعد ذلك على الهالكين.

وإذا أدركنا هذه الحقائق، فهمنا حقيقة النصر الذي نسعى للفوز به، وعلمنا بعدها من المنتصر ومن المهزوم؟ أما إذا غابت هذه الأصول فقد يحيد الداعية عن الطريق، ويخشى أن يكون ممن قال الله فيه: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) [1] [سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤] وإن كانت هاتان الآيتان في الكفار، فإن معناهما قد يشمل في بعض مدلوله أقواماً يشار إليهم بالدعوة والصلاح، ويظن بهم الظفر بمبتغاهم إذ كثرت حولهم الأتباع!

١ – سورة الكهف آية: ١٠٣-١٠٤.

أمثلة من القرآن

تأصيلا لهذا المفهوم، ومزيد بيان لهذه القضية، سأختار أمثلة من كتاب الله، تقصّ سير الأنبياء والمرسلين وبعض الدعاة من الأمم السابقة، يتضح من خلالها، المنهج الذي سلكه أولئك، والنتائج التي حققوها، ليكون عبرة ونبراسًا لنا ولمن يأتي بعدنا.

وسأعرض كل قصة بالقدر الذي أرى أنه يحقق الغرض من إيرادها، مقتصرًا على أقربها صلة بموضوعنا.

١- قصة نوح

ذكر الله -سبحانه وتعالى- نوحا، عليه السلام، في تسع وعشرين سورة من سور القرآن، وقد ذكر في بعضها في أكثر من موضع، منها سورة نزلت بكاملها في نوح وقومه، وهي سورة نوح.

إن قصة نوح مع قومه قصة عظيمة مليئة، بالدروس والعبر، ومما تميزت به، ما يأتي:

(أ) أن نوح، عليه السلام، أول رسول إلى البشر، وكل أول له خصوصيته وميزته.

(ب) طول المدة التي قضاها في قومه، حيث مكث (٩٥٠) سنة.

(ج) أن نوحا، عليه السلام، من أولي العزم من الرسل.

(د) كثرة وروده في القرآن، حيث ورد ذكره (٤٣) مرة. في (٢٩) سورة من سور القرآن، أي في أكثر من ربع سور القرآن.

وسأذكر بعض الآيات التي وردت تقص علينا سيرة نوح مع قومه، ثم أقف بعض الوقفات حولها:

قال -سبحانه وتعالى- في سورة الأعراف: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[1] [سورة الأعراف، الآية: ٥٩].

هذا جوهر دعوة نوح، حيث دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، وحذرهم من مغبة مخالفته.

تلت ذلك مرحلة أخرى واجه فيها قومه بعد استكبارهم وعدم استجابتهم، قال -سبحانه- في سورة يونس: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ

١ - سورة الأعراف آية: ٥٩.

تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)[1] [سورة يونس، الآية: ٧١].

وأطول قصة لنوح مع قومه في سورة هود، حيث حاجهم وجادلهم وبين لهم طريق الهداية، حتى قالوا: (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)[2] [سورة هود، الآية: ٣٢].

ثم يبين الله له النهاية في هؤلاء (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[3] [سورة هود، الآيتان: ٣٦، ٣٧].

ونقف بعض الوقفات المهمة حول قصة نوح، لها تعلق بموضوعنا:

١- صبر نوح عليه السلام على دعوته، مدة مديدة، (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً)[4] [سورة العنكبوت، الآية: ١٤]، كانت فيها دعوته واحدة واضحة لم تتبدل أو تتلون.

٢- اجتهد عليه السلام في إيصال تلك الرسالة المحددة الثابتة، بأساليب مختلفة، بل بكل ما أمكنه من الوسائل المشروعة، (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً)[5] [سورة نوح، الآيات: ٥-٩].

٣- كانت النتيجة رفض القوم الدعوة لأسباب تدل على سخف في عقولهم، ومع ذلك هددوه وتوعدوه عليه السلام، (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)[6] [سورة الشعراء، الآية: ١١١] ثم قالوا: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)[7] سورة [الشعراء، الآية: ١١٦].

---

١ – سورة يونس آية: ٧١.

٢ – سورة هود آية: ٣٢.

٣ – سورة هود آية: ٣٦-٣٧.

٤ – سورة العنكبوت آية: ١٤.

٥ – سورة نوح آية: ٥-٦-٧-٨-٩.

٦ – سورة الشعراء آية: ١١١.

٧ – سورة الشعراء آية: ١١٦.

٤- لم يؤمن لنوح عليه السلام خلال تلك المدة المديدة من الدعوة بالأساليب المختلفة، إلا قليل، (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)[١] [سورة هود، الآية: ٤٠]، قيل: إنهم ثلاثة عشر بنوح، عليه السلام، قال ابن إسحاق: "نوح وبنوه الثلاثة، سام، وحام، ويافث، وأزواجهم، وستة أناسيَّ ممن كان آمن به" [٢]، والظاهر أن هذا القليل طائفة من الضعفاء، (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) [سورة الشعراء، الآية: ١١١]، بل لم تؤمن بنوح عليه السلام زوجته، ولم يؤمن به ابنه، كما قال الله عز وجل: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)[٣] [سورة هود، الآية: ٤٥.] (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)[٤] [سورة هود، الآية: ٤٦]، (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)[٥] [سورة التحريم، الآية: ١٠].

٥- لما أيس عليه السلام من استجابتهم، وبلغ به الحد معهم مبلغه، (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٦] [سورة الشعراء، الآيتان: ١١٧، ١١٨]. (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)[٧] [سورة القمر، الآية: ١٠]. (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)[٨] [سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧]، فدعا عليهم، لم يغير في دعوته، أو يصدر عنه ما يسلط الكفار على الضعفاء الذين اتبعوه.

١ - سورة هود آية: ٤٠.

٢ - تفسير الطبري ٨/٢١٥.

٣ - سورة هود آية: ٤٥.

٤ - سورة هود آية: ٤٦.

٥ - سورة التحريم آية: ١٠.

٦ - سورة الشعراء آية: ١١٧-١١٨.

٧ - سورة القمر آية: ١٠.

٨ - سورة نوح آية: ٢٦-٢٧.

٦- تحقق الانتصار لنوح بعد هذه الرحلة الشاقة العسيرة، وذلك بثباته على دعوته، وكان من ثمرة ذلك أن تولى الله إهلاك المكذبين، استجابة له: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)[١] [سورة القمر، الآيات: ١٠-١٥].

وفي خبره عليه السلام أضرباً لا ضرباً واحداً من نصر الله لعباده المؤمنين، فمن ذلك:

١- صبره وثباته طوال هذه القرون، وعدم تأثره باستهزائهم وسخريتهم، أو ميله إلى محاولات قومه وحاشاه من ذلك، بل كان معتزاً بدعوته رغم الأذى، (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)[٢] [سورة هود، الآية: ٣٨].

٢- حماية الله له من كيدهم ومؤامراتهم، وانظر كيف يتهددونه، (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)[٣] [سورة الشعراء، الآية: ١١٦]، ثم هو يتحداهم، فيحفظه الله عز وجل ولا يصلون إليه! (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ)[٤] [سورة يونس، الآية: ٧١].

٣- إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق، (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ)[٥] [سورة الأعراف، الآية: ٦٤].

٤- نجاة نوح ومن آمن معه، (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ)[٦] [سورة الأعراف، الآية: ٦٤]. (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)[٧] [سورة القمر، الآيتان: ١٣، ١٤].

---

١ - سورة القمر آية: ١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥.

٢ - سورة هود آية: ٣٨.

٣ - سورة الشعراء آية: ١١٦.

٤ - سورة يونس آية: ٧١.

٥ - سورة الأعراف آية: ٦٤.

٦ - سورة الأعراف آية: ٦٤.

٧ - سورة القمر آية: ١٣-١٤.

٥- جعل الله له لسان صدق في الآخرين، وأبقى له في الذكر ثناء حسناً، (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)[١] [سورة الإسراء، الآية: ٣]. (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)[٢] [سورة الصافات، الآية: ٧٩]. (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٣] [سورة آل عمران، الآية: ٣٣].

٦- جعل قومه عبرة للمعتبرين، وترك السفن آية تذكر المؤمنين بخبرهم، وبنعمة الله عليهم، (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) [سورة القمر]، وهذا انتصار آخر.

ولو قدر أن داعية من الدعاة دعا قومه فلم يتحقق له إلاّ وجه واحد مما سبق ثم قضى أو مات، لكان ذلك نصراً عظيماً له.

وقبل أن أتجاوز قصة نوح، عليه السلام، أقف عند آية يحسن الوقوف معها في هذا المقام، وهي قوله تعالى في سورة نوح: (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً) [سورة نوح، الآية: ٢٧]، هذه الآية تفسر لنا سبب دعاء نوح على قومه بعد الصبر الطويل، وهو باختصار تقديمه لمنهج الدعوة على أي اعتبار آخر، وإن كان بقاء العشيرة، والقوم الذين لا يوجد على الأرض غيرهم! فدعا عليهم حماية للمنهج الذي رأى أنه معرض للزوال إن بقي هؤلاء، وتكاثروا على طريقتهم في الكفر والصدود عن سبيل الله، فهذا ما علل به دعوته عليهم: (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)، فأهلك هؤلاء على كثرتهم من أجل عدد من البشر يحملون الحق ويذودون عنه. والدليل على أنه لم يبق سوى من يحمل رسالة التوحيد أن الله – تعالى- قال: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)[٤] [سورة الإسراء، الآية ٣]. قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: وذلك أن كل من على الأرض من بني آدم فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة.

قال قتادة: والناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة[٥].

١ – سورة الإسراء آية: ٣.

٢ – سورة الصافات آية: ٧٩.

٣ – سورة آل عمران آية: ٣٣.

٤ – سورة الإسراء آية: ٣.

٥ – تفسير الطبري ١٩/١٥.

وقال –سبحانه–: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) [سورة نوح، الآية: ٥٨].

ومما يذكر في هذا الصدد أن نوحاً عليه السلام يعتذر عن الشفاعة العظمى يوم القيامة، بدعوته على قومه، وبعضهم ذهب إلى الاستدلال بهذا على أنّ دعاءه خطئية، وأنه ما كان ينبغي له أن يدعو عليهم، وهذا باطل، فلو كانت الدعوة بغياً أو قطيعة رحم لما قال الله عز وجل: (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنبياء]، فالله عز وجل لا يستجيب لدعاء فيه بغي، كما قال صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ"[١]، وإنما اعتذر بتلك الدعوة لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [٢]، فهذه والله أعلم هو المراد بقول نوح عليه السلام كما في حديث الشفاعة: "إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ" [٣].

وهذا مما يبين لك أن المنهاج الذي أنزله الله عز وجل هو الأهم الذي يجب أن يرعى، وأن يحاط بما يحميه، ولهذا كان الانتصار وهو انتصار المنهج لا الأفراد، والعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في المنهج الذي يحمله أولئك سواء أقلوا أم كثروا، وانظر كيف نجا الله عز وجل بضعة نفر أو يزيدون، يحملون الإسلام ويحققون معنى العبودية، وأهلك أهل الأرض جميعاً، حماية لهؤلاء ولمنهاجهم الذي يحملونه.

ومن هذا القبيل قول رسول الله، **صلى الله عليه وسلم** في بدر وهو يناجي ربه: "اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ... " [٤] الحديث. فاستجاب الله لنبينا محمد، **صلى الله**

١ – صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٦) ٢٧٣٥.

٢ – صحيح البخاري (٨/ ٦٧) ٦٣٠٤، صحيح مسلم (١/ ١٨٩) ١٩٩، واللفظ له.

٣ – صحيح البخاري (٦/ ٨٤) ٤٧١٢، صحيح مسلم (١/ ١٨٥) ١٩٤، واللفظ للبخاري.

٤ – صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٤) ١٧٦٣.

عليه وسلم ونصره في بدر، على غير العادة لقلة المسلمين وضعف عددهم، وأهلك عدوهم، بمدد من ملائكة السماء، كما استجاب لنوح، عليه السلام، من قبله.

وبهذه المناسبة فإن من علامات انتصار دين الإسلام، أنه لن تستطيع قوة في الأرض أن تهلك جميع المؤمنين كما كان يخشى في عهد نوح أو في أول الرسالة كيوم بدر، لأنه صح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قوله: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ"[1]، وهذا من جملة نصر هذا الدين.

٢- أصحاب القرية

وهي قصة أصحاب القرية التي ذكرها الله تعالى في سورة (يس)، حيث قال عز وجل: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] [سورة يس، الآيات: ١٣-١٨]. قرية واحدة، وهي قرية أنطاكية كما ذكر المفسرون، يرسل الله عز وجل لأهلها رسولين، فلمّا لم يؤمنوا بهما، أرسل الله إليهم رسولاً ثالثاً، ومع ذلك بقي هؤلاء على إصرارهم وكفرهم، وما زادهم إرسال الرسول الثالث إلا عتوا ونفورا، بل تهددوا الرسل بالقتل والتنكيل: (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [يس: ١٨].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل بعث الله لهم نذيراً من بني جلدتهم، وناصحاً لهم كان من جملتهم، كما قال: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) [سورة يس، الآية: ٢٠]. وذكر حواره معهم ودعوته لهم، لكن القوم أعماهم الشيطان فتجاوزوا في الطغيان، فلم يهددوا الرجل كما هددوا مَن قبله،

١ ــ صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧) ٣٦٤١، صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤) ١٠٣٧.

٢ - سورة يس آية: ١٣-١٤-١٥-١٦-١٧-١٨.

بل قتلوه شرّ قِتلة على ما وصف المفسرون، وهذا شأن الطغاة؛ لا يتحملون أن يخالفهم أحدٌ من بني قومهم أو حتى حاشيتهم.

وهكذا ثلاثة رسل وداعية نذير لقرية واحدة، ومع ذلك لم يستجب أهلها، ولم يكتفوا بالإعراض، بل هددوا الرسل –وقيل إنهم قتلوهم– وقتلوا الداعية الرابع.

إن مقاييس الذين لا يرجون لقاء الله، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، تقول: إن هؤلاء الرسل لم ينتصروا، وتزعم أنهم لم يحققوا شيئاً من أهدافهم، وأن هذا الداعية استعجل في الكشف عن هويته فقتل عليها! هكذا ينظر للحدث من لم يفهم حقيقة الانتصار، ولا معنى الهزيمة!

أما منطق الحق، ومنهج النبوة، فيعلن أن هؤلاء قد نصروا نصرا مؤزرا، وأن أصحاب القرية قد خاسروا خسراناً مبيناً، ومما يبن لك ذلك ما يأتي:

١– أن هؤلاء الرسل قد أدوا ما عليهم، فقد بلغوا رسالة الله، ولم يستسلموا لشبه أهل القرية أولا، وتهديدهم ثانيا، وتلك هي مهمتهم، كما قالوا: (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [سورة يس، الآية: ١٧]. ومن أدى المهمة الملقاة على عاتقه، على أكمل وجه فقد فاز ونجح.

٢– إيمان رجل من أهل القرية بهم، وتأييده لهم علانية، يعد نصرا له ولهم، ولذلك كان رد أهل القرية عنيفاً تجاهه، لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل.

٣– قتل هذا الداعية نصر له ولمنهجه (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) [سورة التوبة: ٥٢]، وهذا قد ضمن الحسنى، فماذا يضيره بعدها! كما قال الله عنه: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) [سورة يس، الآيتان: ٢٦، ٢٧].

٤– انتصر الله عز وجل لأولئك الرسل ولهذا الداعية، وجاءت النهاية المحققة، كما قال الله تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) [سورة يس، الآيتان: ٢٨، ٢٩].

٥- بقي لذلك الرجل ذكر حسن، وثناء عطر، يترحم عليه المؤمنون ويتولونه، فإن ولاءنا –أعني أهل الإسلام- ليس لرسل الله السابقين وحدهم، بل لكل من اتبعهم بإحسان، كما نصلي ونسلم على رسل الله إن ذكروا، نترحم على أوليائهم وأتباعهم المخلصين إن صحت بذلك أخبارهم، وهذا انتصار آخر لهم.

٦- بقي خبر أولئك الرسل، وهذا الرجل، نبراساً يضيء الطريق، فيشحذ همة المؤمنين خبرهم، ويعمل أثره في نفوسهم، ويؤثر على سلوكهم، يرجون السير في طريقهم، ويتحدون الصعاب في سبيل دعوتهم، ولهذا أثرٌ في انتشار الدعوة عظيم، مستفاد من حال أولئك، فعلم أنه لم تذهب تضحيتهم هدراً بل كانت درساً وعظة كان لها أثرها في نشر الدعوة ونصرها، وهذا انتصار آخر.

فهذه بعض الأوجه التي تبين أوجهاً للنصر في خبر الرسل الثلاثة عليهم السلام، والداعية الكريم عليه من الله مزيد رضوان.

وإن الدعاة اليوم في أمس الحاجة إلى أن يقفوا مع قصة أصحاب القرية، ويتدبروا ما فيها.

ثلاثة رسل، وداعية مخلص صادق لقرية واحدة، ومع ذلك لم يؤمنوا، فلم يمنع هذا الداعية من قول كلمة الحق، دون استعجال أو تنازل أو يأس.

بل ورد أنه كان يقول أثناء قتل قومه له: "اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي"[١]، وشفقته عليهم بادية مع جفوتهم وغلظتهم التي بلغت الغاية، ولهذا قال: (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)[٢] فما كان أحرصه على هدايتهم رحمه الله وعظم ثوابه، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية، محبا لهداية الناس، لا يحمل الحقد ولا الضغينة، وهذا هو الانتصار على النفس الذي يسبق الانتصار الظاهر، ومن حرم الانتصار على نفسه وهواه، فلن ينتصر على غيره.

٣- أصحاب الأخدود

١ - تفسير الطبري ١٦١/٢٢.

٢ - سورة يس آية: ٢٦.

قال الله – تعالى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1] [سورة البروج، الآية: ٤-٨].

خبر أصحاب الأخدود المذكور في سورة البروج خبر عجيب، يصور لنا معنى من معاني الانتصار الذي نتحدث عنه، ويبين لك أن استجابة الناس، أو ظهور الدين ليس هو المقياس الوحيد للانتصار، بل إن ثبات الداعية، وقوة حجته، وظهور صحة منهاجه، انتصار بل هو أعظم انتصار.

وقد أورد الخبر بتمامه العلامة ابن كثير –رحمه الله– حيث قال في تفسير هذه الآيات:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ،

١ – سورة البروج آية: ٤-٥-٦-٧-٨.

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[1] [2].

هذه قصة أصحاب الأخدود بطولها، وقد أوردتها لأهميتها، وقد وجدت لصحاب الظلال في تعليقه على هذه القصة كلمات حسان بين فيها حقيقة الانتصار، وسأذكر بعض ما قاله، ثم أضيف ما أراه حولها مما له صلة بموضوعنا:

---

١ - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩) ٣٠٠٥.

٢ ــ تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦٧).

فمما قال -رحمه الله-[1]:

"في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان.

في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة.

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة!

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى..

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون -جميعا- هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، وتنفرد دون -كثير من- الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس -أيضا- إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال.

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد"[2].

ويقول عند قوله تعالى: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [سورة البروج، الآية: ٨]: "حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل أرض، وفي كل جيل.

---

١ - سأختار من كلامه ما له صلة بهذا الموضوع.

٢ ــ في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧٤).

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئا آخر على الإطلاق وإن خصوهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة[١].

إن آيات سورة البروج التي ذكرت الخبر وما أَتْبَعَتْه به من التعقيبات، تبين لنا حقيقة الانتصار، وتختصره الأمر في تقرير أن الفوز الكبير هو في دخول الجنة، بتحقيق الإيمان والعمل الصالح، هذا هو الانتصار الذي ما بعده انتصار، فلا تعجب إذا رأيت الرمح قد أنفذ حرام بن ملحان خال أنس رضي الله عنهما، في بئر معونة، "فقَالَ بِالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ"[٢]! ومن العجيب أن وصف الفوز بالكبير لم يرد في القرآن الكريم إلاّ في هذا الموضع، حيث عقب به على قصة المؤمنين الذين فتنوا في الأخدود!

ومن تأمل الخبر وجد أنواعاً من الثبات الدال على أن الإيمان قد خالطت بشاشته قلوب، ومتى خالطت بشاشة الإيمان القلوب لم ترتد عنه سخطة، ومتى وجدت حلاوته، كان أهون عليها أن تقذف في النار، من أن تنقض الإيمان، وفي خبر الغلام ما يبين أن الإيمان قد خالطة بشاشته قلوب القوم فوجدوا حلاوته ومن ذلك:

١- ثبات الراهب والأعمى، فالأعمى تخلى عن جميع متع الحياة الدنيا، في مقابل أن يظفر بعقيدته، بعد أن كان جليساً للملك، والراهب آثر أن تبقى العقيدة لا مداراة فيها أو إظهار للتراجع عنها ولو خسر حياته.

أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلدا لنا معنى من معاني الانتصار الحقيقي، بعيدا عن التأويلات والأعذار التي يغطي بها كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم إنما فعلوا ذلك من أجل الدين، والمصلحة العامة، وهلم جراً، (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف: ٥٤]، ولو صدقوا وأنصفوا علموا أن نصرهم للدين بأن يفعلوا ما فعله الراهب والأعمى.

---

١ - انظر معالم في الطريق فصل: هذا هو الطريق ص ١٧٣ وما بعدها.

٢ - صحيح البخاري (٥/ ١٠٦) ٤٠٩٢، صحيح مسلم (٣/ ١٥١١) ٦٧٧.

٢- عجيب أمر هذا الغلام! لماذا دل الملك على طريقة مقتله، ولماذا لم يؤثر البقاء ليبلغ رسالة ربه، ويدل الناس على الدين الحق، ويبقي على حياته سالما؟

هذا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان والفُهوم التي لم تعرف حقيقة الانتصار!

إن الغلام قد أدرك -بتوفيق من الله- أن كلمة في لحظة حاسمة صادقة، تفعل ما لا تفعله آلاف الكلمات في عشرات السنين.

إن الحياة مواقف، يتميز فيها الصادق من غيره، وقد سنحت فرصة عظيمة رأى الغلام بعقله الراجح أو بما فتح الله عليه أن من الغُبْنِ تفويتها، على ما قيل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإنَّ لكل خافقةٍ سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدري السكون متى يكون

وقد هبت رياح هذا الغلام، وواتته فرصة سانحة صادفت همّه المجتمع على تبليغ رسالة ربه، ورأى أنه ليس بمغبون إن هو بذل حياته رخيصة في سبيل الله وقد تحقق مراده!

وهكذا شأن العقيدة عندما تتمكن في القلب، تتحول إلى قوة مؤثرة، تحكم الجوارح، ليحيا صاحبها حياة هادفة، لا يألو جهداً في خدمة عقيدته ودينه، بخلاف من لم تتمكن العقيدة في قلبه، فهذا يبقى هم العقيدة عنده على هامش حياته وتفكيره، لا يظهر لها كبير أثر في سلوكه.

إن هذا الغلام قد انتصر عدة انتصارات في معركة واحدة:

فقد انتصر بجودة فهمه، وإدراكه لأقصر الطرق وأسلمها لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته ومجتمعه من الظلمات إلى النور.

وانتصر بقدرته على اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيا جميع العقبات، ومستعليا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

وانتصر على هذا الملك، الذي أعمى الله بصيرته، فخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن الناس قد يتعجبون لأن الغلام قد دل الملك على طريق قتله، ولكنهم لا يدركون أن الملك قد قتل عقيدته ودينه بيده لا بيد غيره، وأزهقها بسهمه من نفوس شعبه!

إن الغلام أقدم وهو يعي حقيقة ما يفعل: أما الملك فأعمته سكرة الملك وعصبية السلطان عن أن يدرك ما خطط له هذا الغلام، في هذه المعركة الفاصلة التي مات فيها فرد وأحييت أمة.. حياة أبدية في دار الخلود.

لقد انتصر الغلام عندما جرت الأمور على ما خطط له، وتحقق ما كان يرجوه ويتوقعه، وقدم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر.

وانتصر الغلام عندما فاز بالشهادة في سبيل الله، فكل الناس يموتون، ولكن القليل منهم من يستشهدون.

وانتصر أخيرا عندما خلد الله ذكره قدوة لمن بعده، وذكرا حسنا على لسان المؤمنين.

٣- إيثار الناس لأن يقذفوا في النار على أن يعودوا في الكفر.

كشأن الطغاة الذين لا يريدون شرع الله، ولا أن يدين الناس بالعقيدة الصحيحة الحقة، بذل الملك جهده، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة، للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له أو لما يدين به.

وكان من ذلك ما أخبر الله به، حفر أخاديده، وأوقد نيرانه، وأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، فكانت المفاجأة المذهلة! كان من المتوقع أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، ويجبن من يجبن، لكن وقع الأمر على خلاف ذلك، فوجد من المؤمنين ثباتاً عظيماً على الدين، وجد أن الإقدام على النار أحب إليهم من ترك عقيدتهم التي برهن لهم هو أنها الحق من ربهم! وكأن الغلام فدائية الغلام قد علمتهم الشجاعة، وملأت قلوبهم ثباتاً، فجدوا في اللحاق به، تموت الأجسام وتحيا الأرواح عند خالقها: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[1] [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩].

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

١ - سورة آل عمران آية: ١٦٩.

والحالة الفريدة التي وردت في الرواية، هي تلك المرأة التي خافت على رضيعها، قال: (حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق) [1].

أي أمة تلك، وأي قوم أولئك! بل هو فضل الله: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) [الأنعام: ١٢٥]، مع الزمن الطويل الذي عاشوه في الظلام، والسنوات التي استعبدهم فيها هذا الملك، ومع قصر المدة التي عرفوا فيها الإيمان، إلاّ أنهم أبلوا بلاء حسناً وثبتوا ثباتاً عظيماً، وكأنهم عاشوا في ظل الإيمان ما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام في صباه.

إنه الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، ولامس الأرواح يفعل العجب.

لقد رأينا في قصة الراهب والأعمى ثم الغلام انتصارا فرديا.

ولكننا في قصة أولئك المؤمنين نرى انتصاراً جماعياً، قل أن يحدث له في التاريخ مثيلاً.

إنه صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم حقيقة الانتصار.

وقبل أن نغادر هذه القصة، يرد سؤال في الأذهان:

ماذا حل بهذا الملك وحاشيته وجنده؟

وهل ذهبت دماء هؤلاء المؤمنين وأرواحهم دون انتقام من الله لمن قتلهم؟

قيلت في ذلك أقوال، لكننا لا نجد في القرآن ولا في السنة أي ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفى علينا.

فسواء انتصر الله منهم فأهلكهم بما شاء أو متعهم وأنعم عليهم وأخر الجزاء ليكون موفراً لهم في الآخرة جميعه، سواء أكان هذا أم هذا لايهم! إذ موضع العبرة المهم هو حال أولئك المؤمنين، وأن نعلم عاقبة الظلم والظالمين إجمالاً، ولهذا قال معقباً: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) [سورة البروج الآية: ١٠].

قال الحسن البصري: "انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة"[2].

١ – صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩) ٣٠٠٥.

٢ – تفسير ابن كثير ٤/٤٩٦.

إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، وهو الثبات على العقيدة وفداؤها بالنفوس، وماذا يضير الذي نصر عقيدته ودين ربه، ثم حرق فانتقل إلى جنات النعيم! وماذا تغني متع الدنيا عمن آل أمره إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟ هل هناك مقارنة بين حريق الدنيا، وحريق جهنم؟ شتان شتان! بون شاسع، وفرق واسع! قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[1]!

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) [سورة البروج الآية: ١١]، (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)، إنها النتيجة التي لا مراء فيها، ولا جدال عند العقلاء.

١ - صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٢) ٢٨٠٧.

أحاديث تبين حقيقة الانتصار

وردت بعض الأحاديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم فيها بيان لحقيقة الانتصار، وكشف لما يتوهم من معنى الهزيمة.

وسأذكر أربعة أحاديث، وأقف مع كل حديث مبينا وجه إيراده.

١-الحديث الأول

أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ" [١] الحديث.

وفي رواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خرج علينا النبي، صلى الله عليه وسلم يوما فقال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ..." [٢] الحديث.

وفي رواية لمسلم، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ[٣] ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ..." [٤] الحديث.

وقد ورد الحديث بروايات أخرى في معنى هذه الروايات.

وبيان صلة هذا الحديث بموضوعنا فيما يأتي:

---

١ - صحيح البخاري (٨/ ١١٢) ٦٥٤١، صحيح مسلم (١/ ١٩٩) ٢٢٠.

٢ - صحيح البخاري (٧/ ١٣٤) ٥٧٥٢.

٣ - الرهيط: قال النووي هم بضم الراء تصغير الرهط. وهي الجماعة دون العشرة شرح النووي على مسلم (٣/ ٩٤).

٤ - صحيح مسلم (١/ ١٩٩) ٢٢٠.

١- ورد في الحديث، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم نظر إلى سواد كثير، وفي رواية: سواد عظيم، ثم رأى سوادا كثيرا -آخر- سد الأفق.

والسواد الأول هم ممن آمن بموسى، عليه السلام، والسواد الآخر هم أمة محمد، صلى الله عليه وسلم وهذا يمثل نوعا من أنواع الانتصار الظاهر، حيث انتشر الدين وآمن الناس، حتى بلغوا هذا المبلغ، وهو النوع الأول من أنواع الانتصار التي أشرت إليها سابقا، ومثل ذلك النبي الذين يمر ومعه الأمة.

٢- ورد في الحديث، أن النبي يمر معه العشرة، والنبي ومعه الخمسة، والنبي يمر وحده، وفي رواية: فجعل النبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد.

ونحن لا نشك في انتصار الأنبياء عليهم السلام كما أخبرنا الله -جل وعلا- بذلك في قوله: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [سورة غافر، الآية: ٥١]. وغيرها من الآيات التي سبق ذكرها.

ثم يأتي يوم القيامة النبي ومعه العشرة، والآخر معه الخمسة، وثالث ومعه رجلان، ورابع ومعه رجل واحد، والخامس ليس معه أحد.

ومما ينبغي أن يعلم أن النبي الذي معه العشرة والخمسة والرهيط قد لا يكونون قد آمنوا به واتبعوه في حياته، بل قد يكون إيمانهم به بعد وفاته، كما أن الذين رآهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم من أمته ليسوا الذين آمنوا به في حياته صلى الله عليه وسلم فقط، بل منهم من آمن به في حياته، ومنهم من آمن به بعد وفاته إلى قيام الساعة.

وهذا يبين بياناً جليًّاً أن الانتصار ليس بكثرة الأتباع، وحشد الجموع كيفما اتفق! لكن قد يكون قبول الناس واستجابتهم، نوعا من أنواع الانتصار، إذا كان الأتباع لا للشخص بل لمنهج الحق، وإلا فلا عبرة بالكثرة والقلة.

والمقصود هو أن هناك أنواعًا أخرى من الانتصار غير الظهور والاتباع، أشمل مما قد يتبادر إلى أذهان كثير من الناس، وإن إدراكنا لهذه الحقيقة وبناء تصرفاتنا عليها هو نوع من الانتصار بل هو أول الخطوات لتحقيق سائر أنواع الانتصارات.

٢- الحديث الثاني

عن خباب بن الأَرَتْ ﷺ قال: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[١].

ولنا معه الوقفات الآتية:

١- خبّاب ﷺ جاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بالنصر - هكذا أطلق خباب، وهو يريد النصر الظاهر، برفع العذاب والأذى الذي كانت قريش تصبه على رسول الله، صلى الله عليه وسلم وصحابته.

فنقله رسول الله، صلى الله عليه وسلم نقلة أخرى مبينا له معنى آخر من معاني الانتصار، وهو الثبات على دين الله، وتحمل المشاق والعقبات، حتى لو ذهبت روح المسلم فداء لدينه وعقيدته.

٢- ثم يذكر له رسول الله، صلى الله عليه وسلم النصر الظاهر وأنه متحقق، ويقسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم على ذلك، ولكنه لا يتحقق إلا بعد الثبات والصبر على المبادئ حتى تتمكن من النفوس.

٣- ونجد أن ما ذكره رسول الله، صلى الله عليه وسلم وأقسم على حصوله وهو إتمام هذا الدين - وهو نوع من الانتصار- قد لا يتحقق في حياة الداعية، فمسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت حدث بعد

١ - صحيح البخاري (٤/ ٢٠١) ٣٦١٢.

وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكثير من أصحابه مات في حياته، بل منهم من مات في مكة تحت التعذيب.

فعلى الداعية أن يعي أن انتصار الدين لا يتعلق بشخصه.

٤- (ولكنكم تستعجلون)، صدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم إن حرص كثير من الدعاة على انتصار هذا الدين قد يؤدي بهم إلى ارتكاب ما يعوقه، وهو الاستعجال، فهم يريدون أن يروا النتائج في حياتهم، بل في أول حياتهم -أحيانا- وهذا لم يتحقق لكثير من الأنبياء والرسل.

وفي هذا الحديث يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النصر يحتاج إلى الصبر والثبات والتفاؤل مع عدم العجلة، وفيه الإشارة إلى أن النصر أشمل مما قد يتبادر إلى أذهاننا، ليس مقصورا على النصر الظاهر، ثم إن النصر الظاهر لا يلزم أن يتحقق في حياة الداعية.

٣- الحديث الثالث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

إن الله عز وجل قال: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ "[1]. الحديث.

والشاهد من هذا الحديث القدسي، أن من كان وليا لله فإن الله معه، وإذا الله كان معه، لزم أن نؤمن إيمانا لا شك فيه بأن الله سينصره، لأن المعركة لم تعد بين الداعية وعدوه، وإنما هي حرب من الله على هذا المعادي، وبدهي أن نعلم من المنتصر ومن الخاسر!

وإذ كانت عرب عدو الله لولي الله مع الله عز وجل فهو الذي يقدر نوع الانتصار وزمانه ومكانه، ولا يخضع هذا لرؤيتنا القاصرة، أو رغباتنا المحدودة، أو اجتهاداتنا البشرية.

وما علينا إلا أن نعلم يقينًا أن المعركة محسومة من أولها، معروفة نتائجها قبل بدايتها، وأن نتعامل بإيجاب مع هذا اليقين، فلا نستعجل ولا نيأس، ولا نتصرف تصرفا قد يكون سببا لحرماننا من النصر الذي لا شك

١ - صحيح البخاري (٨/ ١٠٥) ٦٥٠٢.

فيه، فلنحقق الإيمان، ليتحقق لنا النصر الموعود كما في قول الله عز وجل: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] [سورة الروم، الآية: ٤٧].

٤- الحديث الرابع.

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ، وَآلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»[2]، وكان يقول: "صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ"[3].

إن الصبر على الحق، والثبات عليه، نوع من أعظم أنواع الانتصار، إذ عاقبته حميدة، إما في الدنيا، وإما في الدنيا والآخرة. وقد أثنى الله عز وجل على بعض أنبيائه بالصبر فقال: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[4].

والصابر ينتصر على نفسه وهواه أولا، وينتصر على عدوه بمراغمته وعدم الانصياع له ثانيا، وينتصر لمبدئه ثالثاً.

وإن هذا البيت بصبره وجهاده، وتقديمه حياته فداء لهذا الدين، أسهم في وضع اللبنات الأولى لعزة هذا الدين وظهوره.

وما ضرهم أن عذبوا، إن كان مصيرهم إلى الجنّة! (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)[5] [سورة آل عمران، الآية: ١٨٥]. (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[6] [سورة البروج الآية: ١١].

---

١ – سورة الروم آية: ٤٧.

٢ – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٤٣٨)، قال الحاكم: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

٣ ــ المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٤٣٢) ٥٦٤٦، وصححه الألباني في فقه السيرة (١٠٧).

٤ – سورة ص آية: ٣٠.

٥ – سورة آل عمران آية: ١٨٥.

٦ – سورة البروج آية: ١١.

سورة العصر وحقيقة النصر:

قال الإمام الشافعي –رحمه الله–: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم"[١].

ومن فوائدها التي تغيب عن بعض الأذهان ما قررته من المعاني في مفهوم الانتصار.

إن هذه السورة ترسم منهج النصر واضحاً جلياً، وتصحح الفهم الخاطئ الحاصر للانتصار في صورة واحدة أو نوع دون ما عداه.

فقد أقسم الله – سبحانه وتعالى– أن كل إنسان في خسر، أي خسارة وهلاك وبوار، إلا من استثنى بعد ذلك.

والمستثنون من الخاسرين، هم الفائزون الرابحون المنتصرون.

وجملتهم من تحققوا بما يأتي:

١– الإيمان، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)[٢].

٢– عمل الصالحات، (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)[٣].

٣– التواصي بالحق، (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)[٤].

٤– التواصي بالصبر، (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[٥].

هذه شروط النصر، علم وعمل ودعوة وصبر، فمن استكملها فقد فاز ونجا، وذلك هو الفلاح والنصر، يزيد وينقص بمقدار ما قام بالعبد من هذه الأمور الأربعة.

---

١ – تفسير ابن كثير ٥٤٧/٤.

٢ – سورة العصر آية: ٣.

٣ – سورة آية: ٣.

٤ – سورة العصر آية: ٣.

٥ – سورة العصر آية: ٣.

والله –سبحانه وتعالى– لم يذكر من ضمن المستثنين من الخسار والبوار من حققوا النتائج، وتكاثروا بالأتباع! لأن هذا ليس بلازم للنجاة من الخسارة والبوار.

وعليه فليس من لازم النصر أن يستجيب الناس، أو أن تتحقق الأهداف التي يُسعى إليها، فهذا الأمر مرده إلى الله، قد يكون فتنة، وقد يكون منّة وفضلاً، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[المائدة: ٥٤].

وقد استوقفني في هذه السورة قضيتان مهمتان، لهما علاقة بمنهج الانتصار:

الأولى التواصي بالحق، فالإنسان قد يضعف أو يزل فكانت حاجته مع العلم والعمل ماسة إلى من يوصيه بالثبات على المنهج، ويذكره به، ويحثه على محافظة عليه والصيانة له، حتى لا يخرج عن سبيله وهو لا يشعر، إما بالتأويل أو بالنسيان، أو بسبب ضغط الحياة، أو عوائق الدعوة، وكم من إنسان يتصور أنه على الحق، سائر في الطريق، وهو قد حاد عنه، واتبع السبل من حيث لا يدري، ومع ذلك يقول: لماذا لم أنتصر، أو ما سر تأخر النصر؟ (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥].

فالتواصي بالحق سبيل لتحقق النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، وعاصم من الانحراف عن صراط الله المستقيم.

الثانية التواصي بالصبر: إذ لا يمكن أن يتحقق النصر لمن يستعجل الشيء قبل أوانه، كما لا يتحقق ليائس قانط من رحمة الله، يترك السبيل ويغادر الساحة عند أدنى عقبة!

فالتواصي بالصبر يمنع من الاستعجال، ويبعد اليأس والقنوط.

ومن هنا فإن المؤمن إذا التزم بالحق وتمسك به وسار عليه ولم يحد عنه، ثم صبر وصابر غير مستعجل ولا يائس، فإن النصر متحقق له لا محالة (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً)[1] [سورة النساء، الآية: ١٢٢]. بل إن التزام الحق والصبر عليه، هو النصر الذي لا يتحقق نصر دونه.

١ – سورة النساء آية: ١٢٢.

أسباب تأخر النصر الظاهر

النفس مجبولة على حبّ العاجل، وتحقق النصر الظاهر لدين الله أمر محبب إلى النفس كيف لا، وهو ظهور دين الله وقمع الباطل وأهله، ولذلك قال -سبحانه-: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)[1] [سورة الصف، الآية: ١٣].

ونحن مأمورون بالسعي لإقامة دين الله (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)[2] [سورة البقرة، الآية: ١٩٣].

وكثير من الناس -وأخص الدعاة منهم- يستبطئون تحقق النصر، وقد يسبب لهم هذا الأمر شيئا من اليأس أو الانحراف عن المنهج، ويغفلون عن الأسباب التي تؤخر النصر الظاهر، مع أن معرفة هذه الأسباب أمر مهم، وله آثاره الإيجابية على حياة الدعاة والمدعوين والأتباع. وهذه الأسباب على نوعين:

١- أسباب سلبية، والمعرفة بها سبيل إلى تلافيها وإزالتها.

٢- أسباب إيجابية، وفقهها عامل مؤثر في ثبات الداعية على المنهج الرباني، سواء تحقق النصر عاجلا أو آجلا.

وسأقف مع أبرز الأسباب المؤثرة في تأخير النصر أو عدم وقوعه في حياة الداعية أو على يديه، وسأختصر فيها بما يناسب المقام:

١- تخلف بعض أسباب النصر المشروعة.

وذلك أن للنصر أسبابًا، فإذا تخلّفتْ هذه الأسباب أو بعضها تخلف النصر؛ لأن السبب يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته، وإن كان قد لا يلزم من وجود السبب وجود النصر لمانع من غيره، ولكن يلزم من عدمه العدم.

فمثلا: نجد من أسباب النصر المشروعة الإعداد للمعركة لأن الله -تعالى- يقول:

---

١ - سورة الصف آية: ١٣.

٢ - سورة البقرة آية: ١٩٣.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)[1] [سورة الأنفال، الآية: ٦٠]. فعدم الأخذ بالأمر والإعداد الملائم سبب من أسباب الهزيمة أو تأخر النصر.

٢- وجود مانع من الموانع.

والمانع هو: ما يلزم من وجوده العدم، ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته. والموانع كثيرة جداً، كالظلم، والركون للكفار، والمعاصي، وغيرها، والفرق بين هذا وما تقدمه، أن المانع شيء يجب ألا يكون فكان، وأما السبب فشيء يجب أن يكون فلم يكن، وموانع النصر هي أسباب الهزيمة، ففي غزوة أحد كان مانع النصر هو المخالفة، وهو أيضاً سبب الهزيمة، وذلك أنه لما بدت علامات النصر، ثم وقعت المخالفة من الرماة لأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، امتنع النصر، وحلت الهزيمة، قال -تعالى-: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[2] [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥]، قال محمد بن إسحاق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي. (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[3] أي بسبب عصيانكم لرسول الله، صلى الله عليه وسلم حين أمركم ألا تبرحوا مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة[4].

وفي حنين تأخر النصر وامتنع برهة لمانع، قال الله عز وجل: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)[5].

فذكر -سبحانه وتعالى- أن قول بعض المسلمين لن نغلب اليوم من قلة، وكان عددهم (١٢) ألفا[6] كان مانعا من موانع النصر؛ لأن الله - سبحانه- وكلهم إلى كثرتهم فلم تنفعهم شيئاً، ثم تحقق النصر بعد

١ - سورة الأنفال آية: ٦٠.

٢ - سورة آل عمران آية: ١٦٥.

٣ - سورة آل عمران آية: ١٦٥.

٤ - تفسير ابن كثير ٤٢٥/١.

٥ - سورة التوبة آية: ٢٥.

٦ - انظر تفسير الطبري ١٠٠/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٤٣/٢.

ذلك عندما زال هذا المانع حيث ثبت أن الكثرة وحدها لا تجلب النصر، وإنما الاعتماد على الله -سبحانه- بعد الأخذ بالأسباب.

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية مراعاة الأسباب، والحرص على تحصيلها، مع تلافي الموانع واجتنابها.

٣- الانحراف عن المنهج.

الانحراف عن المنهج مانع من الموانع، ولكن أفردته لأهمية التنبيه عليه، فقد تتبعت بالاستقراء واقع كثير من الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية المعاصرة، وبحثت عن السر لعدم انتصارها، أو تحقق ما تعلنه من أهداف خيرة نبيلة، فهي جماعات قد تكون مخلصة تسعى لنصرة دين الله، وتحكيم شرعه جاهدة، ولا يتحقق لها ذلك بل ربما تبعد عن مرادها! فوجدت إن من أبرز الأسباب -حسب ما ظهر لي- انحرافها عن المنهج الصحيح -منهج أهل السنة والجماعة- في ثوابتها أو وسائلها.

وقد يكون الانحراف يسيراً -في نظر الناس- ولكنه خطير جدا ومؤثر على تحقق النصر.

ومن الانحراف في المنهج التساهل في قضية العقيدة، وعدم اعتبارها من الأولويات، بل ربما منع أفرادها من الاشتغال بها، فلا بنيان عقدي يجمع أصحابها، فكل له اعتقاد، ولا سبيل لجمع الناس إذا كانوا على أهواء أشتى وتصورات مختلفة.

ومن الانحراف في المنهج كذلك تمييع مفهوم الولاء والبراء، والركون إلى الظالمين ومداهنتهم.

ومن ذلك تأصيل الحزبية، وبناء الولاء والبراء عليها، الأمر الذي يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، وتنافر قلوبهم.

ومن الانحراف كذلك اعتقاد أن الغاية تبرر الوسيلة، وهلم جرا.

إن تحرير الأصول والثوابت، وتنقيتها مما قد يشوبها، أمر جوهري وأساس في سلامة منهج الدعوة وصدق التوجه، ومن ثمّ ينعكس أثره على النتائج المرجوة.

وكذلك الوسائل لابد من عرضها على القواعد والأصول الشرعية، لتثمر ما نرجوه، وتحقق الأهداف المنشودة، وكما لا يمكن أحداً أن يغترف من الماء بالغربال، وإن اجتهد وأخلص في ذلك، حتى يستعمل آنية مناسبة أو وسيلة صحيحة، فكذلك شأن الدعوة تحتاج إلى وسائل مشروعة لتحقق الأهداف المشروعة.

٤- عدم نضوج الأمة.

إن دين الله عظيم، (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) [المزمل: ٥]، هذا الدين تحتاج الأمة إلى أن تتربى عليه زماناً، فتشربه نفوس بنيها، وتتشبع به، حتى يخالط الدم والعظم، عندها لن تنفك عنه، قائمة أو قاعدة، ويغدو نزعه مستحيلاً، ويكون قضيتها التي تحملها حيث سارت، وأنى توجهت. وهذا لا يكون إلاّ بعد معاناة لذلك القول الثقيل، والدين العظيم، فإذا صبرت الأمة عليها رسخت قدمها في الدين وكانت أهلاً للنصر.

فلابد للأمة أن تجتاز المشقة والعقبات قبل أن تنال النصر.

إن قيام هذا الدين يحتاج إلى طاقات ضخمة، كثيرة العدد، متعددة المواهب والتخصصات، تسخر كذلك في خدمة دينها، والعمل على انتصاره، وهذا الأمر يحتاج إلى نضج في زمن ليس بالقصير، وإعداد الرجال وتربيتهم من أشق المهمات وأصعبها.

ولذلك نجد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم بقي ثلاثة عشر عاماً يربي الرجال واحدا واحدا، ويهيئ الأمة جماعة جماعة، استعدادا لحمل الرسالة والذود عنها.

فقوم في دار الأرقم، وآخرون يهاجرون إلى الحبشة، ومرة يحصر الجميع في شعب أبي طالب، ثم تأتي الهجرة إلى المدينة.

كل هذا وغيره هيأ هذه الأمة لحمل الرسالة حتى كمل الدين وفتح الله على المسلمين فتحاً عظيماً.

وهذا الأمر كما احتاج إلى زمن في العهد الأول، لابد له من زمن في كل عهد ليبلغ تمامه، فالبذر لا يقوم دفعة، والبنيان لا يكتمل فجأة، ومن لم يراع ذلك ضاعت جهوده.

٥- عدم إدراك قيمة النصر.

إن مجيء النصر سريعا دون كبير مشقة ولا عناء، يجعل الأمة لا تعرف قيمته، ومن ثم لا تبذل من الجهود للمحافظة عليه ما يستحقه وما يحتاج إليه.

وسأضرب مثلين يوضحان هذه الحقيقة:

(أ) **الرجل الذي عاش في الفقر**: ثم جد واجتهد في تحصيل المال حتى أصبح غنيا، تجده يحافظ على هذا المال محافظة عجيبة، ويبذل كل الوسائل الممكنة لحمايته وتنميته.

وذلك لأنه ذاق طعم الفقر ومذلته، ثم إنه تعب في جمع هذا المال وتنميته، فليس من السهولة أن يفرط فيه، ويكره أن يعود للفقر بعد أن أخرجه الله منه، كما يكره أن يعود للكفر بعد إذ أنقذه الله منه!

أما أولاده وورثته، فتجد أن كثيراً منهم لا يولي هذا المال ما يستحقه من عناية واهتمام، بل قد يعبث به، ويفرط فيه حتى تؤول حاله من الغنى إلى الفقر.

وذلك أنه لم يعرف قيمة هذا المال، ولم يتعب في جمعه وكسبه، ولم يذق طعم الفقر كما ذاقه مورثه.

(ب) قيام الدول وسقوطها: مما يلحظ أن الدول تكون إبان قيامها قوية مهابة، وتجد أنّ الأمراء أو الخلفاء يبذلون جهودا مضاعفة للمحافظة على الدولة، وتلافي ما يضعفها من الأسباب.

ثم تأتي أجيال لم تساهم في قيام الدولة، وورثت الملك كما يرث الوارث المال، فينشغلون عن الدولة بمكاسبها، ويغفلون عن تبعاتها، فتبدأ الدولة في الضعف والتفكك حتى يؤول الأمر إلى سقوطها.

ولهذا فإن مجيء النصر دون تعب أو عناء، تنضج به الأمة، قد يكون سبباً في عدم بقائه، وسرعة ذهابه، ولهذا كثيراً ما يتأخر النصر حتى يستوي الأمر ويوجد الرجال الذين يعرفون قيمة النصر، والثمن الذي يستحقه.

٦- عدم الصدق في القيام بأعباء الرسالة بعد النصر.

قد يكون في علم الله -جل وعلا- أن هؤلاء لو انتصروا لن يقوموا بتكاليف الانتصار، من إقامة حكم الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا في حقيقته يؤول إلى ضعف في الإخلاص، وخلل في سلامة القصد، فالانتصار ليس مرادا لذاته، ولا لمكاسبه وملذاته، وإنما لما يتحقق منه، وهو إخماد الفتنة، وأن يكون الدين كله لله.

وقد قال الله عز وجل: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [سورة الحج، الآية: ٤٠، ٤١]، والله عليم بالقلوب وما فيها، فقد يتخلف نصره بموجب علمه، وقد لا نعلم نحن سبب ذلك ولكن الله يعلمه بأن هؤلاء قوم لا يستحقون النصر، والله عليم بما تكنه الصدور، وبما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

٧- عدم انكشاف الباطل وظهور الزيف.

من أسباب تأخر النصر أن الباطل الذي يحاربه الدعاة قد لا يكون ظاهراً للناس، لم ينكشف زيفه لبعضهم، ولهذا يجد له أنصاراً من المخدوعين، ممن ليسوا على ذلك الباطل، ولا يقرونه لو اكتشفوا حقيقته.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أخبار المنافقين، فكثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- لم يكونوا يعرفون عددا من أقطاب النفاق، بل قد يحسن بعضهم ببعض هؤلاء الظن، فيدافع عنهم، ويذب عنهم، فلا عجب إذا وجدنا اليوم من يدافع عن المنافقين المعاصرين، مع أنهم كما قال الله تعالى في أسلافهم: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [سورة المنافقون، الآية: ٤].

والدخول في معركة مع قوم لم تنكشف حقيقة أمرهم، له آثاره السلبية على الأمة المسلمة، إذ أن بعض المسلمين سيقف في صف أولئك، كما وقف بعض الصحابة منافحاً عن منافقين.

كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عائشة في قصة الإفك وجاء فيه:

"فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» . قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ" الحديث[1].

وقد لا يقف بعض المسلمين مع هؤلاء، ولكن سيكون وقوفهم مع الدعاة ضعيفاً ومتردداً؛ لأنهم لم يتيقنوا أن خصومهم على الباطل، وهذا يؤثر على المعركة التي يخوضها أهل الحق ضد أعدائهم، بل قد يؤدي إلى فرقة المسلمين، وتنازعهم، ومن ثمَّ تأخر النصر.

١ - صحيح البخاري (٥/ ١١٨) ٤١٤١، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٣٤) ٢٧٧٠.

٨- عدم صلاحية البيئة لقبول الحق.

من أسباب تأخر النصر، أن البيئة المحَارَبَة قد تكون غير صالحة بعد لاستقبال الحق، واستنبات الخير والعدل في أرضها، وهذا يقتضي أموراً تهيئها لذلك قبل الدخول معها في معركة، ومن ذلك بذل جميع الوسائل الشرعية لبيان أن هؤلاء القوم -المحاربين- على الباطل، والدأب على دعوتهم وبيان حقيقة الإسلام، وفساد ما هم عليه، فهذا بمثابة الحرث لتلك الأرض غير الصالحة.

وإن هذا الأمر سبباً في هدايتهم قبل المعركة فإنه وسيلة لمعرفة الحق، ومن ثم تمهيد الطريق لقبوله به بعد المعركة، ولذا فإن الدعوة إلى الإسلام تسبق الدخول في المعركة.

٩- موانع في المدعوين لا الداعية.

من أسباب عدم الاستجابة لدين الله مع توافر عوامل النصر بالنسبة للداعية، وجود موانع تتعلق بالمدعوين -ومنها ما تقدم- ومن ذلك عدم تقدير الله هداية هؤلاء القوم، فالآفة ليست في الدعوة ولا الداعية، لكن المحل ليس بقابل للتطهير، (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [المائدة: ٤١]، قال الله عز وجل: (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)[١] [سورة الرعد، الآية: ٣١]. وقال: (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ)[٢] [سورة النحل، الآية: ٣٦]. وقال -جل وعلا-: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)[٣] [سورة المائدة، الآية: ٤١]. إلى غير ذلك من الآيات[٤]. وهذا في حقيقته ليس بسبب لتأخر النصر الحقيقي، لكنه سبب في تأخر النصر الظاهر.

١٠- قد يكون انتصار الداعية بعد وفاته أبلغ.

---

١ - سورة الرعد آية: ٣١.

٢ - سورة النحل آية: ٣٦.

٣ - سورة المائدة آية: ٤١.

٤ - وانظر تفسير الطبري ٣٣١/٣٠ تفسير سورة الكافرون لتجد كلاما جيدا.

قد يكون انتصار الداعية بعد وفاته أعظم من انتصاره في حياته، فيختار الله عز وجل له ذلك، وقد تقدم أن الانتصار هو انتصار المنهج، أما الأشخاص فإن الله قد تكفل بإثابتهم وإكرامهم، جزاء دعوتهم وصدقهم، ولهذا يصفي الله عز وجل من عباده شهداء تكون الشهادة خير لهم من الظهور: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) [سورة آل عمران]، ولعل كثيراً من الشهداء، لو قدر له أن ينطق لقال! (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)[1] [سورة يس، الآية: ٢٦، ٢٧].

وكم من داعية لم ينتصر الدين في حياته، ولكنه انتصر أعظم الانتصار بعد مماته، فهذا عبد الله الغلام، وسبق بيان قصته، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية مات في سجنه، ولكن منهجه انتصر انتصارا باهرا بعد عدة قرون من وفاته، فمضى ولم يظفر من المتع الدنيا جراء ما بذل للأمة بكبير شيء، بل أوذي وسجن، وذلك أوفر لأجره، وأرفع لدرجته عند ربه إن شاء الله، وفي دعاة الإسلام المعاصرين نماذج حاضرة ضحوا بدمائهم في سبيل دعوة أمتهم، ونرجو أن يدخر الله لهم الأجر موفوراً.

١١- تأخر النصر لحكمة الابتلاء والتمحيص.

قد يتأخر النصر ابتلاء وتمحيصاً للدعاة وللأمة، وتخليصاً لها من الغلث، وفيه من العبر والدروس ما يفيد اللاحقون منه فوائد جمة. قال -تعالى-: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[2] [سورة البقرة، الآية: ٢١٤]. وقال: (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[3] [سورة العنكبوت، الآية ١ - ٣]. والآيات كثيرة معلومة.

وبعد:

١ - سورة يس آية: ٢٦-٢٧.

٢ - سورة البقرة آية: ٢١٤.

٣ - سورة العنكبوت آية: ١-٣.

فهذه أبرز أسباب تأخر النصر الظاهر حسب ما تبين لي، وقد تتكشف للعامل أسباب تأخر النصر، وقد لا تتكشف.

والذي يجب أن نعتقده أن علينا فعل الأسباب الشرعية، سعيا لنصرة دين الله، وأن نجتهد في تحقيق الواجب، أما تحقق النصر فليس لنا بل هو لله (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[1] [سورة آل عمران، الآية: ١٢٦].

والنصر لن يتحقق إلا إذا حان موعده الذي هو في علم الله تعالى، لا في تقديرنا القاصر.

ولن يتحقق النصر إلا بعد الإيمان الجازم بوعد الله، (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[2] [سورة الروم، الآية: ٤٧].

أما من عنده شك وريبة فلا يستحق النصر[3].

التنازل من أجل الانتصار

مما لفت نظري في واقع كثير من الدعاة والجماعات الإسلامية المعاصرة أنها قد تستبطئ النصر، وحرصا منها على دين الله، وتأثراً بكثرة الانتقادات التي توجه لها، ولأنها ترى أنها لم تحقق أهدافها بالرغم مما تبذله من جهود، رغم مضي أعمار هؤلاء العاملين، لأجل ذلك كله ولغيره من الأسباب قد تقدم بعض التنازلات للحصول على بعض المكاسب للدعوة.

وقد تنوعت صور هذه التنازلات وتعددت، والناس والجماعات فيها بين مقلٍ ومكثر.

١ – سورة آل عمران آية: ١٢٦.

٢ – سورة الروم آية: ٤٧.

٣ – انظر في ظلال القرآن تفسير سورة الحج ٢٤٢٧/٤ ففيه كلام قيم حول بعض ما ذكر.

وهذا الموضوع يستحق بحثا مستقلا مفصلا، ليس من غرض هذه الرسالة أن تستوعبه، وأسأل الله أن يقيض له من يجليه.

وحسبي أن أقتصر فيه على ما يحتاجه القارئ الكريم في موضوعي: (حقيقة الانتصار)، وقد تأملت ما ورد في كتاب الله –مما أحسب أن له تعلقاً بذلك– فوجدت ثلاث قضايا حدثت في العهد الأول متعلقة بما نحن فيه عالجها القرآن، ورسم لنا منهجا نسير عليه محذراً من أن تزل قدم أو يقع خلال.

وسأذكر كل قضية، وأسلوب معالجتها، ثم أذكر في النهاية خلاصة ما توصلت إليه، وأسأل الله التوفيق والسداد.

القضية الأولى: سبب نزول سورة الكافرون:

قال الإمام الطبري: حدثني محمد بن موسى الخرشي قال: ثنا أبو خلف، قال: ثنا داود، عن عكرمة عن ابن عباس، " أن قريشا وعدوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك ولنا فيها صلاح، قال: ما هي، قالوا: تعبد آلهتنا سنة، اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ " السورة، وأنزل الله: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) إلى قوله: (فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) " [1] [سورة الزمر، الآية: ٦٤، ٦٥، ٦٦].

وقال الطبري: أيضا –حدثني يعقوب، قال حدثنا ابن علية، عن محمد بن إسحاق، قال: ثني سعيد بن ميناء مولى البختري، قال: " لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله، صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خير

١ – تفسير الطبري ٣/٣٣١.

مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) " [سورة الكافرون، الآية: ١]. حتى انقضت السورة [١].

إننا نجد في هذه الأسباب أن قريشا طلبت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم أن يتنازل لها، وتتنازل له حتى يلتقوا على أمر وسط بين دين الله الحق المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وبين دين قريش القائم على الشرك!

وقد يقول بعض المتساهلين في دين الله الذين يحسبون أنهم أذكياء يدبرون له ويكيدون! وإنما يدبرون لأنفسهم ويحتالون لتخليصها من تبعات الرسالة! قد يقول: لو أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم وافقهم على ذلك، وطلب منهم أن يبدأوا بعبادة الله أولاً، فإنهم إذا عرفوا الإسلام لن يرجعوا عنه، وفي هذا تحقيق مكسب كبير للإسلام، وتحقيق انتصار، ورفع للبلاء الذي يلاقيه المسلمون.

لكن الله عز وجل قد حسم هذه القضية، (قل يا أيها الكافرون لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) وفي آخرها (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [سورة الكافرون].

إن القضية قضية مبدأ وعقيدة، فهي غير قابلة للمساومة ولا لتنازل قيد أنملة.

ودفعا لأي احتمال أو طمع في هؤلاء قال –سبحانه–: (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)[٢] مرتين، فهو تأكيد حاسم، وخبر جازم من عند علام الغيوب، أنهم لن يعبدوا الله أبدا، لا في الحاضر، ولا في المستقبل، وكأن بعد إيمانهم كبعد استجابة الرسول، صلى الله عليه وسلم لمطلبهم، وهكذا كان، قال الإمام الطبري:

(وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)[٣] فيما تستقبلون أبدا "ما أعبد" أنا الآن، وفيما أستقبل، وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبدا، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه، صلى الله عليه وسلم أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدثوا به أنفسهم، وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات،

١ – تفسير الطبري ٣٣١/٣٠.

٢ – سورة الكافرون آية: ٣.

٣ – سورة الكافرون آية: ٣.

وآيس نبي الله، صلى الله عليه وسلم من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبدا، فكانوا كذلك لم يفلحوا، ولم ينجحوا إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافرا، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وجاءت به الآثار.[١]

إن التأمل في هذه القضية، وكيف حسمها القرآن، يعطي الدعاة من الدروس ما هم بأمس الحاجة إليه، ويرسم منهجا واضحا جليا في كيفية مواجهة أساليب كثير من أعداء الإسلام حاضرا ومستقبلا.

القضية الثانية: سبب نزول قوله -تعالى-: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)[٢] [سورة الأنعام، الآية: ٥٢].

قال الطبري -مسندا إلى ابن مسعود رضي الله عنه: " مر الملأ من قريش بالنبي، صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك، هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا، أنحن نكون تبعا لهؤلاء، اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية: " وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ " "[٣].

وفي رواية أخرى قال الطبري -مسنداً إلى مجاهد- قال: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)[٤] بلال وابن أم عبد كانا يجالسان محمدا، صلى الله عليه وسلم فقالت قريش محقرتهما: لولاهما وأمثالهما لجالسناه، فنهي عن طردهم [٥].

وفي رواية قال الطبري: حدثني القاسم، قال: ثنا حسين، قال: ثنا حجاج، عن ابن جريج، عن عكرمة في قوله: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ)[٦] الآية.

---

١ - تفسير الطبري ٣/٣٣١.

٢ - سورة الأنعام آية: ٥٢.

٣ - تفسير الطبري ٧/ ٢٠٠.

٤ - سورة الأنعام آية: ٥٢.

٥ - انظر تفسير الطبري ٧/٢٠٢.

٦ - سورة الأنعام آية: ٥١.

قال: " جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار، إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءَنا، فإنما هم عبيدنا وعُسَفاؤنا، (١) كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتّباعنا إياه، وتصديقنا له! قال: فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلتَ ذلك، حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلام يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية:"وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه" إلى قوله:"أليس الله بأعلم بالشاكرين"، [سورة الأنعام، الآية: ٥١، ٥٢].

فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر عن مقالته، فأنزل الله – تعالى–: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ) " [1] [سورة الأنعام، الآية: ٥٤].

وفي رواية أخرى لابن ماجه عن خباب أن نفراً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ» ، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ، فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}" [2][3] [سورة الأنعام، الآية:٥٢].

وقد وردت أحاديث أخرى، ولا يخلو بعضها من ضعف ولكن، يقوي بعضها بعضا فترتقي بمجموعها إلى درجة الحسن لغيره، ومعناها متقارب، وكلها تذكر سببا واحدا للنزول، ولكن في بعض هذه الروايات زيادات على بعض، ويؤكد هذه الروايات الحديث الآتي في صحيح مسلم، عن سعد هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ

١ – تفسير الطبري٧/٢٠٢ وهذا الحديث مرسل.

٢ – سورة الأنعام آية: ٥٢.

٣ – سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٨٢) ٤١٢٧، وصححه الألباني.

هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" [١] .

وذكر ابن كثير في قوله –تعالى–: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)[٢] الآية، إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من الرسول، صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ)[٣] الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ)[٤] الآية [٥] [سورة الكهف، الآية: ٢٨].

إن الوقوف مع سبب نزول هاتين الآيتين يضع حدا لكثير من الاجتهادات التي يقدم عليها كثير من الدعاة والجماعات، وهم –ولا شك– يقدمون عليها حرصا على دينهم، ورغبة في انتصار الدين وظهوره، وتحقيقا لبعض الأهداف التي يسعون إليها.

ولكن الغاية –مهما كانت شريفة– فإنها لا تسوغ الوسيلة إذا كانت منحرفة محرمة.

تصوروا القضية هكذا:

لو أن جماعة من الجماعات الإسلامية، التي توجد في دول كافرة، وتسعى جاهدة للدعوة إلى دين الله، ونشر رسالة الإسلام، قالت لها تلك الدولة: نحن مستعدون للتفاوض معكم من أجل النظر في الاعتراف بكم، للدخول في الانتخابات مثلا، أو للحصول على بعض الامتيازات للدعوة، ولكن نشترط عليكم أن تبعدوا فلانا وفلانا من قيادتكم، وآخرين من جماعتكم، فإننا لا نعترف بجماعة فيها هؤلاء، والجماعة لا تنقم

١ – صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨) ٢٤١٣.

٢ – سورة الكهف آية: ٢٨.

٣ – سورة الأنعام آية: ٥٢.

٤ – سورة الكهف آية: ٢٨.

٥ – انظر تفسير ابن كثير ٣/٨٠.

على هؤلاء الدعاة شيئا في أمر دينهم وعقيدتهم، ولم تكن تفكر في ذلك قبل هذا الطلب، ولكن الدولة لا تريدهم احتقارا لهم.

فيا ترى هل تصمد تلك الجماعة، وترفض الموضوع جملة وتفصيلا وتقول: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1] [سورة البروج، الآية: ٨]. أو تبدأ مناقشة ما يسمى بالمصلحة؟ وماذا يضير لو أبعد هؤلاء من أجل مصلحة الدعوة، وتحقيقا للمكتسبات المتوقعة، إلى غير ذلك من الزخارف المزَوّقة للتخلي عنهم وإبعادهم! أظن -وذلك بحكم معرفتي بواقع بعض الجماعات- أنها ستستجيب لهذه المساومات، وقد استجابت لأقل من ذلك. أما الدُّول فكثيراً ما أبعدت وسلمت من أبناء مِلَّتها أناساً يصنفهم العدو على أنهم غير مرغوب بهم!

بينما حسم القرآن هذه القضية منذ العهد المكي، ورسم لنا منهجا لا لبس فيه ولا غموض (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)[2] [سورة الأنعام، الآية: ٥٢].

إنه أمر مخيف جدا، رسول الله، صلى الله عليه وسلم أفضل البشر، وإمام المرسلين، لو فعل هذا، وهو لن يفعله بل لن يجول بخاطره إلاّ من أجل مصلحة الدعوة، ورسالة الإسلام، ولو فعله -وحاشاه من ذلك- سيكون من الظالمين.

والأصل الذي يجب أن نلتزمه، وهو كذلك يبين لنا المنهج الذي يجب نسلكه إزاء مثل هذه المساومات، التي قد يتأول الناس فيها باسم المصلحة، هو قول الله عز وجل: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[3] [سورة الكهف، الآية: ٢٩]. الآية.

١ - سورة البروج آية: ٨.

٢ - سورة الأنعام آية: ٥٢.

٣ - سورة الكهف آية: ٢٩.

هذا واجبنا، وتلك مسئوليتنا، أن نقول الحق، أما هل يؤمن الناس أو يكفروا فليس لنا (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)[1] إن القضية عندما تتعلق بالمبادئ فلا مجال للمفاوضة ولا للتنازل، والمسألة محسومة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[2] [سورة الكافرون، الآية: ٦].

وإلاّ فمن ينصرنا من بأس الله إن حدنا عن منهاجه، وقديماً قالها نوح عليه السلام –وهو هو أحد أولي العزم– قالها صريحة مدوية ترسم لنا منهاجاً، قالها في وجه كبراء قومه الذين أمروه أن يطرد أناساً غير مرغوب فيهم عندهم! لازدرائهم إياهم، واستصغارهم لشأنهم، قال: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [هود].

القضية الثالثة: ما ورد في سورة الفتح: قال ابن كثير: نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك: على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وقد وردت قصة الصلح في روايات عديدة، منها في الصحيحين وغيرهما. وهي قصة طويلة سأقتصر على جزء يسير منها مما له صلة بموضوعنا، وهو مما ثبت في الصحيح.

١– جاء في صحيح البخاري: "فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَاتِبَ[3]، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، قَالَ سُهَيْلٌ[4]: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَ اللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا

١ – سورة الرعد آية: ٣١.

٢ – سورة الكافرون آية: ٦.

٣ – وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٤ – سهيل بن عمرو رئيس المفاوضين من قريش.

نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله" [١].

٢- ومما جاء في الصلح: "وأنك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك، فتدخلها بأصحابك" [٢].

٣- وجاء -أيضا- كما قال سهيل: "عَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا"[٣]، وفي رواية عند الإمام أحمد: "أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ " [٤].

هذا بعض ما ورد في الصلح، ولذلك فإن عمر لما بلغه عزم الرسول، **صلى الله عليه وسلم** على عقد الصلح ولم يبق إلا الكتاب غضب غضبا شديدا وذهب إلى رسول الله، **صلى الله عليه وسلم** وقال له: "أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى» ، قُلْتُ[أي عمر]: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى» ، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» " [٥]

إن هذا الصلح الذي اعتبره عمر ﷺ دنية في دينه، ومع ما قد يبدو لأول وهلة من صعوبة القبول ببعض الشروط المجحفة التي كتبت، إلاّ أن الله عز وجل العليم الخبير سمّاه فتحا مبينا، قال ابن مسعود: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال جابر: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء ﷺ قال: "تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ"[٦]، وقَالَ أنس ﷺ: "لَمَّا نَزَلَتْ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ}

١ - أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

٢ - مسند أحمد (٣١/ ٢١٨) ١٨٩١٠، قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

٣ - صحيح البخاري (٣/ ١٩٦) ٢٧٣١.

٤ - مسند أحمد (٣١/ ٢١٨) ١٨٩١٠، قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

٥ - صحيح البخاري (٣/ ١٩٦) ٢٧٣١.

٦ - صحيح البخاري (٥/ ١٢٢) ٤١٥٠.

[الفتح: ٢] إِلَى قَوْلِهِ {فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح: ٥] مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ يُخَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَقَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا"[١] ، وفي مسند أحمد من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نَزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا جَمِيعًا"[٢].

وفي رواية أخرى لأحمد عن أنس ﷺ قال: "نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢] مَرْجِعَنَا مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ"[٣].

وفي هذه القضية تجد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قبل من المشركين عدة أمور أهمها:

١- أن يكتب كاتبه باسمك اللهم، بدلا من بسم الله الرحمن الرحيم.

٢- أن يكتب: محمد بن عبد الله، بدلا من: محمد رسول الله.

٣- أن يؤخر دخول مكة إلى العام القادم.

٤- أن يرد من جاء من المشركين مسلما دون إذن وليه، مع أنهم لن يردوا من جاء إليهم مشركا.

وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة عندما رأوا أن لا يعطوا صلحاً: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا" [٤].

ولو دققنا النظر في هذه الأمور التي أجابهم إليها رسول الله، لوجدنا أنها لا تتعلق بالعقيدة ولا بالمبدأ، وفرق كبير بينها وبين ما سبق في سورة (الكافرون). وسورة (الأنعام)، وليس فيها اعتراف بالباطل أو إقرار له.

كيف وقد سمى الله هذا الصلح: (فَتْحاً مُبِيناً)[٥] ولنقف مع هذه المطالب الأربعة، وقفة يسيرة موجزة، تبين ذلك.

---

١ ـ صحيح مسلم (٣/ ١٤١٣) ١٧٨٦.

٢ – مسند أحمد (٢١/ ٢٣٣) ١٣٦٤٠، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٣ – مسند أحمد (٢٠/ ٣٣٥) ١٣٠٣٥، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٤ – صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) ٢٧٣١.

٥ – سورة الفتح آية: ١.

أما كتابة "باسمك اللهم" فليس فيها محذور شرعي، فلو أن مسلما قال: باسمك اللهم، وهو لا يعتقد تأويلاً أو نفي اسم الرحمن الرحيم ولا صفته، فإنه لا يأثم.

وأما: كتابة محمد بن عبد الله، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله، وقد نفى، صلى الله عليه وسلم أي احتمال قد يتطرق إلى الأذهان، فقال لهم: " والله إني لرسول الله وإن كذبتموني " فإذا انتفى اللبس فلا محذور.

وأما رجوعهم هذا العام إلى العام المقبل، فهذه قضية مصلحية تقدر بقدرها، والذي اقتضى الإذعان لها عدم إمكان دخولهم مكة مع تعنت المشركين إلاّ بانتهاك حرمة، وذلك لحرمة مكة وحرمة الأشهر الحرم –على الصحيح من قولي العلماء– ولذلك قال: (لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)، فلا تنتهك هذه الحُرَم بقتال استجابة للعواطف الجياشة التي تدعو للاعتمار هذا العام.

وكم من التصرفات يقوم بها بعض الناس استجابة لعاطفة غير منضبطة تسبب مفاسد عظيمة، قد لا يقدرون المفسدة تقديراً صحيحاً أثناء ثوران العاطفة.

وأما قضية إعادة من جاء مسلماً إلى المشركين فقد تبدو مجحفة، لكنها في حقيقتها لا تخلو من مصلحة، والقضية قضية موازنة تتجاوز مصلحة الأفراد إلى مصلحة الأمة، ولا ضرر فيها على الأفراد عند التمعن فيها فلا يلزم أن يقبل المسلمون من فرّ إليهم لينجو بدينه، فأرض الله واسعة، يسعه أن يفر إلى أي بلاد، يدل على ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم لأبي جندل: "يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا" الحديث[1].

وقوله لأبي بصير لما جاءه في المدينة: "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ "[2].

وقد فهموا رضي الله عنهم الإشارة ففي تتمة الخبر أن أبا بصير "خرج حتى أتى سيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير،

١ – مسند أحمد (٣١/ ٢١٩) ١٨٩١٠، قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

٢ – صحيح البخاري (٣/ ١٩٧) ٢٧٣١.

حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن"[1].

وهكذا كان فقد كان ردهما بداية فتح عظيم للمسلمين.

وبعد:

هذه هي القضايا التي ذكرت أنني سأبين منهج القرآن فيها، وقد فعلت، وهنا آتي لخلاصة الموضوع ونتيجته، فأقول:

إن مفهوم التنازل قد اختلط على كثير من الدعاة والجماعات، وكل منهم يتمسك بدليل يناسبه، دون نظرة شمولية، فنحن بين إفراط وتفريط، والموضوع يحتاج -كما ذكرت سابقا- إلى دراسة شاملة مؤصلة، تجمع فيها الأدلة، وتعرض الوقائع والأحوال، مما يساعد على حسم الموضوع وبيانه.

ومن خلال ما سبق فقد اتضح لي ما يلي:

أولا: لا يجوز التنازل اختياراً عن أمر يتعلق بأصل من أصول الإسلام، أو مبدأ من مبادئه، أو حكم من أحكامه التي حسمها الكتاب والسنة، أو أجمع عليها المسلمون.

ثانيا: أما مسائل الاجتهاد، وهي كثيرة بعضها يتعلق بأمور لم يتعين وجوبها، على فئة أو شخص، وبعضها يتعلق بالوسائل الدعوية، والسياسات الشرعية، فتراعى فيها القواعد، الشرعية الكلية العامة، كقاعدة، درء المفاسد وجلب المصالح، وقاعدة سد الذرائع، وقواعد وأصول: المصالح المرسلة والاستحسان، وغيرها من القواعد المعروفة.

وذلك لا يكون إلا من العلماء المتبحرين، الذين يسوغ لهم الاجتهاد.

وأخيرا أقول: إن حرصنا على نصر دين الله، وشدة محبتنا لظهوره على الدين كله يجب ألا تكون مخرجة لنا عن الالتزام بالمنهج الشرعي، فإن الغاية لا تصحح الوسيلة.

---

١ - السابق.

من صور النصر العاجل والآجل في القرآن

أشرت إلي شيء من هذا فيما تقدم، وأذكر هنا صورة مجتمعة باختصار؛ لتكون واضحة سهلة الاستحضار للدعاة، لئلا يتعجلوا وعد الله، فكل شيء عنده بمقدار، فلا يعجله حرص حريص، ولا يردّه كره كاره، وهو العليم الحكيم.

١ –من الأنبياء من أذاه قومه، فنصره الله عليهم، فأهلكهم وأقام الدين في حياته، كموسى ومحمد، عليهما أفضل الصلاة والسلام.

٢– ومنهم من ولاه الله الملك – وهذا نصر عظيم– كداود وسليمان، عليهما السلام.

٣– ومنهم من أذاه قومه ولم يؤمنوا به، إلاّ قليل منهم فنجاه الله ومن معه، وأهلك عدوه، ثم لم يبين لنا القرآن ماذا حدث للنبي بعد ذلك؟ هل آمن به قوم آخرون، أو بقي على من آمن معه؟ أو أذكروا ذريات من آمن بهم، كنوح وهود وصالح ولوط؟

٤–ومنهم من قتله قومه، أو حاولوا قتله، فانتقم الله له بعد حين، كيحيى ومن أرسل لأصحاب القرية (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)[1] [سورة يس، الآية: ٢٩]، وكذلك عيسى حال اليهود قتله وآذوه، فجعل الله الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

٥– ومنهم من آمن به قومه بعد إياسه منهم، كيونس عليه السلام، ترك قومه وفارقهم، فَقَدَّرَ عليه الله عز وجل عقوبةً، ثم عفا عنه، ولما عاد إليهم، نصره الله نصرا مؤزرا، وظهر دين الله فيهم فمتعهم الله في دنياهم.

٦– ومن الدعاة من قتله قومه فكان قتله آية آمن بسببها كثير من قومه فقتلوا وحرّقوا، ولا نعلم ماذا حل بقتلتهم، سوى أن الله دعاهم للتوبة، وتوعدهم إن لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق في الآخرة.

كما في خبر أصحاب الأخدود [2].

ولا يعنى هذا أنهم لم ينصروا في الدنيا، فقد بينت أوجه النصر عند ذكر قصتهم.

---

١ – سورة يس آية: ٢٩.

٢ – انظر كتاب معالم في الطريق ص١٨٠، وفي ظلال القرآن تفسير سورة البروج ٣٨٧٣/٦.

إن استحضار هذه الصور في ذهن الداعية عامل مساعد في تخطي الصعاب، وتجاوز العقبات الحسية والمعنوية، تزيد من إيمانه بربه، وثقته في تحقق موعوده، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)[1] [سورة يوسف، الآية: ٢١].

وقفة مع قصة يونس عليه السلام.

وردت قصة يونس، عليه السلام، في القرآن في عدة مواضع، منها في سورة الأنبياء، قال تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[2] [سورة الأنبياء، الآية: ٨٧].

وأطول سياق للقصة جاء في سورة الصافات، قال تعالى: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)[3] [سورة الصافات، الآيات: ١٣٩-١٤٨]. وجاء في سورة القلم قوله: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)[4] [سورة القلم، الآيات: ٤٨ - ٥٠].

وجاء خبر قومه كذلك في سورة يونس، قال الله عز وجل: (فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) [يونس: ٩٨].

قد روي خبرهم بروايات متعددة، واختلف المفسرون حول سبب تركه لقومه، ومعنى قوله -تعالى-: (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً)[5] على قولين:

---

١ - سورة يوسف آية: ٢١.

٢ - سورة الأنبياء آية: ٨٧.

٣ - سورة الصافات آية: ١٣٩.

٤ - سورة القلم آية: ٤٨-٥٠.

٥ - سورة الأنبياء آية: ٨٧.

١- قيل ذهب مغاضبا لربه.

٢- قيل ذهب مغاضبا لقومه.

وقد روى الطبري عن ابن عباس والضحاك أنه ذهب مغاضبا لقومه.

وروى عن الشعبي، وسعيد بن أبي الحسن، وسعيد بن جبير أنه ذهب مغاضبا لربه.

وقد رجّح الإمام الطبري بعد ذكر عدة روايات، أنه ذهب مغاضبا لربه، فقال: وهذا القول -أعني قول من قال إنه ذهب مغاضبا لربه- أشبه بتأويل الآية، وذلك لدلالة قوله: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)[١] على ذلك، على أن الذين وجهوا تأويل ذلك إلى أنه ذهب مغاضبا لقومه، إنما زعموا أنهم فعلوا ذلك استنكارا منهم أن يغاضب نبي من الأنبياء ربه، واستعظاما له، وهم بقيلهم أنه ذهب مغاضبا لقومه قد دخلوا في أمر أعظم مما أنكروا[٢]، وغيره من المفسرين تأول ما روي عن السلف في ذلك، وأياً ما كان فالذي يعنينا -هنا- أن يونس، عليه السلام، سواء كان قد ذهب مغاضبا لربه أو لقومه، فإنه قد استعجل الأمر، ولها قال -تعالى- لمحمد، صلى الله عليه وسلم (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ)[٣] فإنه لم يصبر، وسواء أكان، عليه السلام، استعجل إيمانهم أم استعجل حلول العذاب بهم[٤] لأنهم قد كذبوه، فقد استعجل انتصاراً لا لنفسه ولكن لدينه، فالإيمان والاستجابة انتصار للداعية، وتعذيب المكذبين انتصار للداعية أيضاً، فلما وقع من نبي كريم هذا الاستعجال عاقبه الله عز وجل، بأن حبسه في بطن الحوت، وهو مليم، أي: مذنب.

غير أن الله عز وجل ألهمه التسبيح والاستغفار فعفا عنه وغفر له بل اجتباه ربه فجعله من الصالحين، كما قال عز وجل: (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) [القلم: ٥٠].

فلما رجع إلى قومه آمنوا كلهم، (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)[٥] [سورة الصافات، الآيتان: ١٤٧، ١٤٨]. وهذا من أعظم الانتصار.

---

١ - سورة الأنبياء آية: ٨٧.

٢ - انظر تفصيل ذلك في تفسير الطبري ٧٦/١٧.

٣ - سورة القلم آية: ٤٨.

٤ - انظر تفسير الطبري ٧٦/١٧ وما بعدها.

٥ - سورة الصافات آية: ١٤٧-١٤٨.

قال الإمام الطبري في تفسير قوله -تعالى-: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)[1] [سورة القلم، الآية: ٤٨]. يقول -تعالى- ذكره لنبيه محمد، **صلى الله عليه وسلم** فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين، بما أتيتهم به من القرآن وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنينك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك وأذاهم لك.

(وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ)[2] قال قتادة: لا تعجل كما عجل، ولا تغضب كما غضب[3]، "وهو مذموم" أي: مذنب أو مليم.

قال الطبري: أي لا تكن كصاحب الحوت فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما حبس يونس في بطن الحوت [4].

إنه أمر عظيم حري بالدعاة أن يفقهوه، فسنة الله واحدة، وعامة الناس أولى بالعقوبة من أنبياء الله إذا خالفوا سنة الله.

وقفات مهمة

١ – سورة القلم آية: ٤٨.

٢ – سورة القلم آية: ٤٨.

٣ ــ تفسير الطبري ٢٩/ ٤٦.

٤ – السابق ٢٩/٤٤.

أولا: إذا فهم الداعية حقيقة الانتصار، فإن هذا لا يعني أن يتساهل الداعية في أمر الدعوة، وفي السعي الحثيث لإزالة المنكرات، والجد في محاولة هداية الناس، وذلك أن الشيطان قد يوسوس له فيقول:

أنت مهمتك البلاغ، أما النتائج فليست لك –وهذا حق– فإذن لماذا تحزن أو تتعب نفسك فيما ليس لك! وهذا تمويه فإن الحزن شيء، والجد والاجتهاد في القيام بأمر الله شيء آخر! ثم يوسوس له أن هؤلاء الناس لا خير فيهم، ويكفي أنك بيّنت مرة أو مرتين، أو ثلاثا، فإذا لم يستجيبوا فإنك معذور، ولا داعي للاستمرار والإصرار، لأن جهودك ضائعة، ولو استفدت من وقتك في غير هذا الأمر لكان خيراً لك، فيصرفه بذلك عن واجب الدعوة أو يفتِّره.

ثم يبدأ الداعية يتراخى شيئا فشيئا، حتى يترك الدعوة وينعزل عن الناس وشأنهم، وهذا لايدل على كبير فقه لحقيقة الانتصار! بل هو الفشل الذريع، أما فهم حقيقة الانتصار فيزيد من حماس الداعية –مع الانضباط– سعيا وراء تحقيق هذا المطلب الذي عز مناله، سواء أكان انتصارا ظاهرا لدين الله، أو كان انتصارا للداعية نفسه –كما سبق تفصيله.

وعلى الداعية أن يحزن ويفرح، ولكن لا بد أن يكون حزنه وفرحه إيجابيا فعالا.

فحزنه يزيد من حرصه وإصراره على إنقاذ أمته، وهداية قومه، وتعبيد الناس لله جل وعلا.

وفرحه يقوي عزيمته ويشد من أزره للمضي قدما في تحقيق أهدافه انتصاراً للدين وحبا للخير أن ينال المسلمين.

ثانيا: كل داعية يجب أن يرسم لنفسه منهجا يسير عليه ويحدد أهدافا يسعى لتحقيقها، يستمد ذلك من كتاب الله وسنة رسوله **صلى الله عليه وسلم** مراعيا حاجة المجتمع الذي يعيش فيه، والواقع الذي يعاصره، ولكن الملاحظ أن بعض الدعاة عندما يسير زمنا في دعوته، ثم ينظر فيما تحقق على يديه، فجد أنه لم يتحقق ما كان يصبوا إليه بل تحقق بعضه، يشعر أنه فشل في مهمته، وخسر في دعوته، فييئس ثم يتوقف.

وهذا أمر خطير، فإذا كان بعض الأنبياء لم يتحقق على أيديهم هداية رجل واحد، ومع ذلك لم يشكوا في دعوتهم أو يتوقفوا في طريقهم، فكيف يسوغ لرجل غير معصوم، مع أنه حقق بعض ما يدعو إليه! أن يتوقف لأنه لم يحصل له كل ما أراد!

وكيف له أن يزدري نعمة الله عليه يوم تحققت له بعض أهداف الدعوة! ألم يسمع قول رسول الله **صلى الله عليه وسلم** لعلي رضي الله عنه: "فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ"[1]. وهذا يدل علي أن هداية رجل واحد انتصار عظيم للداعية.

ومن السياسات الفاشلة في الحياة السياسة الجامدة الحدية! إما كل شيء، أو لا شيء! وهي كذلك في الدعوة.

ولذلك فإن كلمة سيد –رحمه الله– "خذوا الإسلام جملة أو دعوه"، تحتاج إلى تفصيل، ولا تصوب على إطلاقها، فبعض وجوه معانيها حق، وهناك وجوه أخرى فسرت بها هذه الكلمة، يستشهد بها بعض الدعاة، تخالف المنهج الصحيح، فاعتقاد الإسلام، والدينونة به كله لابد منها، فمن كره بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، أو رأى غيره أصلح، أو آمن ببعضه وكفر ببعض، فهو كمن تركه كله لا يغنيه ما أخذ من دينه عليه الصلاة والسلام، وأما في العمل على إقامة الشرع في الأرض، وإحياء السنن، وإماتة البدع، وسياسة الدعوة، فإن من منهج الحق أن نصبر على الناس، ونقبل منهم شيئاً فشيئاً.

ثالثا: من أهم أنواع الانتصار الانتصار على النفس، بل لا يمكن أن يتحقق للداعية أي نوع من أنواع النصر إلا إذا انتصر على نفسه وشهواتها أولاً، ومتى تبع المرء شهوته، وجرى مع هواه أرداه! (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[2] [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥]، (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)[3] [سورة النساء، الآية:٧٩]. (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[4] [سورة المائدة، الآية: ٣٠]. (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[5] [سورة الرعد،

١ – صحيح البخاري (٤/ ٤٧) ٢٩٤٢، صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢) ٢٤٠٦.

٢ – سورة آل عمران آية: ١٦٥.

٣ – سورة النساء آية: ٧٩.

٤ – سورة المائدة آية: ٣٠.

٥ – سورة الرعد آية: ١١.

الآية: ١١]. إلى غير ذلك من الآيات، وفي المقابل: قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[1] [سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١].

ومن هنا فإذا تأخر النصر فلنبدأ في بحثنا عن سبب ذلك من أنفسنا، فمِن مأمنه يؤتى الحَذِر.

١ - سورة النازعات آية: ٤٠-٤١.

الخاتمة

مما سبق ظهر لنا أن حقيقة انتصار الداعية تتمثل فيما يلي:

١- التجرد لله والإخلاص له، بأن يبتغي بعمله كله وجه الله تعالى، (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[١] [سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣]، وقال سبحانه: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)[٢] [سورة البينة، الآية: ٥]، والعمل الذي لا يصاحبه الإخلاص حري بالرد وعدم القبول.

٢- سلامة المنهج، وهو أن يكون وفق ما كان عليه رسول الله، **صلى الله عليه وسلم** وصحابته، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة، وهو منهج الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، قال -سبحانه-: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[٣] وقال **صلى الله عليه وسلم** "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ"[٤] وقال: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي"[٥].

٣- الالتزام بما يدعو إليه والثبات على الطريق حتى يلقى الله، قال -سبحانه-: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[٦] [سورة الزخرف، الآية: ٤٣]. وقال: (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[٧] [سورة لقمان، الآية: ٢٢]. وقال: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)[٨] [سورة البقرة، الآيتان: ٤٤، ٤٥]. فالثبات على الطريق، من أقوى عوامل النصر وأسبابه.

---

١ - سورة الأنعام آية: ١٦٢-١٦٣.

٢ - سورة البينة آية: ٥.

٣ - سورة الأنعام آية: ١٥٣.

٤ - سنن ابن ماجه (١/ ١٦) ٤٣، وصححه الألباني.

٥ - المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ١٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٣٧.

٦ - سورة الزخرف آية: ٤٣.

٧ - سورة لقمان آية: ٢٢.

٨ - سورة البقرة آية: ٤٤-٤٥.

بل إن صاحب الباطل إذا ثبت على باطله فغالبا ما يظهر فكيف بمن كان على الحق المبين!

٤- **الصدع بالحق**، وعدم المداهنة، قال-تعالى-: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)[١] [سورة الحجر، الآيتان: ٩٤، ٩٥]. وقال: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[٢] [سورة الكهف، الآية: ٢٩]. وقال –سبحانه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[٣] [سورة المائدة، الآية: ٦٧]. وقال: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ)[٤] [سورة آل عمران، الآية:١٨٧]. وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)[٥] [سورة المائدة، الآية: ٨]. إلى غير ذلك من الآيات التي توجب الصدع بالحق والدعوة إليه.

٥- **الصبر وعدم اليأس** مع اليقين الجازم بوعد الله ونصره لعباده، ذكر الطبري وابن كثير أن ابن جريج قال إن موسى عليه السلام –لما دعا على فرعون بقوله: (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم). قال الله تعالى: (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون)، [سورة يونس، الآية: ٨٩.] قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[٦]. فأيقن بوعد الله، كما قال –سبحانه-: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)[٧] [سورة الصافات، الآيات: ١٧١، ١٧٢، ١٧٣]. وقال: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[٨] [سورة غافر، الآية: ٥١]. وقال: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)[٩]

---

١ – سورة الحجر آية: ٩٤-٩٥.

٢ – سورة الكهف آية: ٢٩.

٣ – سورة المائدة آية: ٦٧.

٤ – سورة آل عمران آية: ١٨٧.

٥ – سورة المائدة آية: ٨.

٦ – تفسير الطبري ١٦١/١١ وتفسير ابن كثير ٤٢٩/٢.

٧ – سورة الصافات آية: ١٧١-١٧٢-١٧٣.

٨ – سورة غافر آية: ٥١.

٩ – سورة يوسف آية: ١١٠.

[سورة يونس، الآية: ١١٠]. وقال: (وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[١] [سورة يوسف، الآية: ٨٧]. وقال: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ)[٢] [سورة الأحقاف، الآية: ٣٥]. وقال: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ)[٣] [سورة القلم، الآية: ٤٨]. وقال: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)[٤].

(وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)[٥] [سورة الروم، الآية: ٦٠]. وقال: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[٦] [سورة السجدة، الآية: ٢٤]. وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[٧] [سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠]، واصبر ولا تيأس.

فإذا تحققت هذه المقومات في فرد أو جماعة تحقق لها النصر، ووعد الله لا يتخلف أبداً، وسيكون لها بذلك الظهور يوماً.

وختاماً نقول: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[٨] [سورة البقرة، الآية: ٢٥٠]. (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)[٩] [سورة آل عمران، الآية: ٨]. (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[١٠] [سورة آل عمران، الآية: ١٤٧]. (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ

١ – سورة يوسف آية: ٨٧.

٢ – سورة الأحقاف آية: ٣٥.

٣ – سورة القلم آية: ٤٨.

٤ – سورة الروم آية: ٦٠.

٥ – سورة الروم آية: ٦٠.

٦ – سورة السجدة آية: ٢٤.

٧ – سورة آل عمران آية: ٢٠٠.

٨ – سورة البقرة آية: ٢٥٠.

٩ – سورة آل عمران آية: ٨.

١٠ – سورة آل عمران آية: ١٤٧.

مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[1] [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١ – سورة البقرة آية: ٢٨٦.